فنون الأدب العربي

الفن الغنائي

١

الغزل

الجزء الأول

بقلم

الدكتور محمد سامي الدهان

دار المعارف

الغَزَل

منذ نشأته حتى صدر الدولة العباسية

فنون الأدب العربي

الفن الغنائي

١

الغزل

منذ نشأته حتى صدر الدولة العباسية

يشترك في وضع هذه المجموعة
لجنة من أدباء الأقطار العربية

الطبعة الثالثة

دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

تمهيد

الغزل ألصق الفنون الأدبية بحياة الرجل والمرأة ، وهو أشهرها وأكثرها رواجاً وإمتاعاً ، لأن المرأة نصف الرجل وتمام عيشه وحياته ، يُكمل بها ما ينقصه من بهجة وسعادة ، وهى مبعث الرضا والغضب والفرح والترح ، وهى مَعينه وإلهامه ، لأنها مظهر الجمال الحىّ فى دنياه ، شغلت حياة الأدباء والمتأدبين والقراء والمستمعين ، وألهبت خيالهم وأقلامهم ، وملأت صحفهم وأوقاتهم .

وقد قام الأدب العربىّ بنصيبه فى الغزل العالمى ، فتغنى بالمرأة وأنشد باسمها وجعلها موضع الاستهلال فى هجائه ومديحه وحماسته ، وخصّها بقصائد ومقطعات ، فشغلت عدداً كبيراً من الصفحات يُربى على نصف الأدب العربىّ ، لذلك كثر الغزل وتضخم حتى ليشكّل ديواناً كبيراً جداًّ ، يحبّه الناس ويقبلون عليه سماعاً وغناء .

والذى يتصفح ديوان الغزل العربىّ يحار فى تعدّد ألوانه وأوصافه ، ويُعييه أن ينشئ فيه كتاباً أو يحصر معانيه فى سفر ، لذلك كان لنا أن نعتذر عن قصورنا فى هذا السبيل وعجزنا عن الاستيعاب فيه ، فكأننا نكتب فى تاريخ الأدب العربىّ كلّه ملخّصين ، لأن الغزل عاطفة قوية رسمها من أحسّ بها ومن لم يحسّ ، وتجمّل بها من لم يكن جميلاً فى هذا الباب ، فتزين بمحاسنها ليشتهر عنه الذوق والرقة لعله يروج فى قومه . وهنا تبدو صعوبة الحكم فى معرفة

الصحيح والزائف والطبيعي والمقلّد ، فكل ذلك ذوق ، وللمؤلف منه حظ وللقراء حظوظ ، فلا سبيل إلى فرض الرأى وبسط الحكم ، لأن العاطفة لا تشبه العلم ولا يقوم البحث فيها سويًّا نهائيًّا خالصاً كما قد يقوم فى العلم .

لذلك نعدّ هذه الصفحات محاولة أولية فى عرض أبيات الغزل وصوره وتفسير ما فيها ورواية نماذج منها عصراً بعد عصر لعلنا نجلو للقارئ صورة بسيطة نبدئ فيها ونعيد ونلحّ ونكرّر حتى تظهر المحاولة قريبة من أذهان القراء ، كما يلحّ المدرس نفسه ويكرّر رأيه ليوضّح فكرته ويمكّن لقوله . ولن نبسط المصادر أو نذكر المراجع أو نحيل إلى كاتب أو صاحب فكرة ورأى ومدرسة ومذهب ، بغية الإيجاز والاختصار ، فنحن نختار من البحوث والأشعار ما يخفّ حمله على القارئ ويغلو ثمنه عند الأديب ، وذلك لنضعه قريباً من النفوس جميعاً يمدّون إليه أيديهم فيقفون منه على ما يريدون فى صفحات قليلة وزمن يسير ، والله من وراء القصد .

الدكتور سامى الدهان

مقدمة

المرأة والغزل

منذ دبّت الحياة البشرية على الأرض سعى الرجل إلى رضا المرأة فى أساليب شتى ، تفنن فيها وأعمل براعته وخياله وعبقريته ، فطوراً كان يغنى بالأصوات وطوراً يعزف على الآلات ، وأحياناً يخترع أجمل القول وأطيب الحديث.

والرجل فى هذا كله فنان يسعى إلى قلب المرأة لعله يمتلك هواها وقيادها يتخذ الفن سبيلاً إليها ، فهو بذلك يتحدث عنها ويتحدث إليها وحديثه هو الغزل . وقد تغزلت الأمم منذ ولادة الدنيا بأساليب تناسب الأرض والإقليم والجنس والعنصر، وتوافق الزمان والظروف . ونشأ عن غزل هذه الأمم ديوان مختلف الصفحات والألوان ، ضاع عنّا كثير منه لكرّ الحدثان وتعاقب الحروب والفتوح ، ولم يبق إلا أقلّه . والذى بقى منه يشهد على أن الإنسان هو الإنسان يحب ويهوى ويفصح عن حبه فى شعر ونثر مهما اختلفت اللغات والأجناس .

والحضارة فى سيرها من الشرق إلى الغرب نقلت ألوان هذا الحب على مدى الأجيال من الصين إلى الهند ومن الهند إلى فارس ومن فارس إلى العراق ومن العراق إلى الشام ومنها إلى جزيرة العرب وإفريقية والغرب . وقد تناولت أمم هذه الشعوب صور الحب والغزل وصبغته بألوانها وأفاضت عليه من إحساسها وتقاليدها فنقصت من عمقه أو زادت فيه ، ورققت من حواشيه وبدّلت من معانيه

وسبكته بألفاظ وصور تختلف فيما بينها على السبيل والطريق وتتفق كلها فى هوى القلب وبث الصبابة والوجد .

والمرأة فى ذلك كله تتنقل على جناح الشعور والعاطفة والخيال فى أجواء الأمم ، فتلبس أثواباً مختلفة وتتخذ أشكالاً شتى ، فهى طوراً ملاك وطوراً إلاهة وأحياناً تشبه فى ألوانها وأعضائها ما فى الأرض والصخر والسماء والماء من حيوان وجماد .

وقد وصلت إلينا أكثر الآداب القديمة وعرفنا كيف تغزلت فى آدابها فرأينا ما جاء على الحجر وحفظ على أوراق البردى أو سطر فى الكتب ، فقرأنا فى شاهنامة الفرس ومهابهارتا الهند وإلياذة اليونان وإنيادة الرومان وأغانى رولان عند الفرنسيين ، وهيلد براند عند الألمان وغيرها من كتب الملاحم والأساطير والسير ، وكلها تصف المرأة بألوان قومية ، وتجعلها غاية الرجل وأمنية هواه وأغنية شعوره ومحل خياله .

والعرب فى أطوار حياتهم تقلبوا على جوار الفرس واليونان وسمعوا أغانى الأمتين فى سبيل رحلتهم إلى التجارة أو زحفهم إلى الحرب أو وقوعهم فى الأسر أو جوارهم مع الأسرى ، ولكن أكثر شواهد النقل ضاعت مع الزمن وفقدت فى ظلمة الأحقاب .

وقد انبثقت فى البلاد المتاخمة للعرب أديان وظهرت تعاليم ، وقام أنبياء وعمرت أديرة وصوامع ، وتنقل بينهم الكتاب المقدس فى عهديه القديم والجديد ، ولا شك فى أنهم سمعوا آياته وعرفوا صوره ، ولم يصل إلينا أثر ذلك كله فى آدابهم ، ولم نعرف مبلغ استفادتهم منه أو اطلاعهم عليه . ولعل ذلك لانشغالهم بالغارات والحروب ، أو لعلهم تأثروا بذلك وضاع هذا الأثر فيما فقد من أدبهم .

وليس من اليسير أن نصدق أن الأمم القديمة والحديثة انتفعت بهذه الآداب

ووقف العرب عن الانتفاع بها . وفى الآداب الأوربية قديمها وحديثها رجال قلدوا هذه الآداب واستفادوا من آياتها ، فزخر بها أدبهم كما نجد عند الألمان والإنكليز والفرنسيين والإيطاليين . ويكفى أن نذكر شاعراً واحداً على سبيل المثال هو ألفريد ده ڤينى ، فقد جعل من آيات الكتاب المقدس منبعاً لوحيه ومنهلاً لصوره وقصائده ، فكتب فى الخاطئة ، وبنت يفتاح ، وموسى على الطور .

أجل ليس من اليسير أن نصدق أننا على رغم الجوار وقرب الديار وطول المعاصرة لم نُعمل خيالنا فى اللحاق بهذه الآداب والاستفادة منها ، فى القديم والحديث ؛ وأننا اكتفينا بما تنبته أرضنا من نبات وما تحويه من حيوان وما تملكه من صخر وشجر وماء ، فعكفنا عليه وقصرنا نظرنا على ما حولنا فغمسنا الريشة واتخذنا الألوان والصور لمواضيعنا مما نملك ومما نرى . لهذا صغنا تماثيل المرأة فى الغزل منحوتة من هذا كله ، ولهذا تغنينا بهذه الأناشيد على مدى العصور يقلد بعضنا بعضاً فى أكثر الأحيان ، فتتردد الصور وتتكرر التشابيه على شىء من الاختلاف والتطور . وسنحاول أن نصف هذا الاختلاف وهذا التطور حين نعرض للغزل العربى على مدى العصور فيما يلى من صفحات .

الفصل الأول

الغزل عند العرب

موقع المرأة — مصادر الغزل فى أدبنا

عاشت المرأة العربية إلى جانب العربىّ وشاركته عيشه فى السلم والحرب والدعة والاضطراب ، وقاسمته الحياة فى السراء والضراء ، فى عيش قاس عنيف ، من حرب ضد الطبيعة وضد بنى الإنسان ، فاصطلى جسدها بنيران الحرب والسبى والقتل ، واضطرم قلبها بنيران الحب والهوى .

وقد احتلت فى أدبنا العربى صفحات كثيرة ، لأنها كانت مدار حياة الرجل وموضع فخره ومكان شرفه وحمى وطنه الصغير ، حارب ليبقى على العشيرة والقبيلة ، فأنشد شعر الحماسة وافتخر بأنه حمى أهله وجيرانه ، وهجا أعداءه فثلب أعراضهم وتناول أمهاتهم وأخواتهم وبناتهم ، ومدح فرأى فى الممدوح من يكسو صغاره ويحفظ أهله ويكسب بيته المال ويدفع عنه ذل الطلب وعار المرأة ، ورثى فبكى الميت وامتدح فيه صفات الكرم وحفظ العرض والشرف ودفع العار .

أما حديث القلب وحكاية الحب فقد أخذت من حياة العربىّ وأدبه مكاناً رحباً ، فخلّفت لنا هذا الشعر الغنائى فى أبسط صوره الساذجة ، يتحدث الشاعر فيه عن نفسه ويرسم فيه مشاعره وعواطفه وأهواءه ورغباته ، ويتحدث عن معشوقته حديث الراغب المشتهى ليشفى علة جسده ولينقع غلة قلبه ، لا يعنيه من أمرها ما هى عليه من عقل ، وما وراء جمالها من فكر ، وما بين جنبيها من همّ ، أو مثل عليا ؛ فلا يحلّق فى رسم عواطفها ورغباتها وأهوائها وتفكيرها ،

وإنما يحوم حول نفسه ، ويجعلها المثال المنشود ، يتحرك الناس فى سبيله ويسعى الخلق من أجله ، فهى تحيا حياتها له وهى تعيش لإرضائه .

ونظن أن العربىّ عاش أربعة عشر جيلاً لا يكاد يفارق هذه الصورة ولا يكاد يختلف عن أجداده فى النظر إليها ، بل لا تكاد هذه الغاية تفارق خياله فهى متعته وهى محل رغبته .

ونحسب أن الذى اختلف على الأجيال هو أسلوب التعبير رقّ وخشن ، وصفا وتكدر ، وساء وحسن ، تبعاً لظروف عيشه واختلاف الأوطان وتبدل الأزمان ، ولبثت المرأة هى المرأة يقول فيها شعره ، ويرسل فيها أغانيه ، ويسميه الأدب العربى بالغزل .

والغزل فى كتابات النقاد والعلماء شبيه بالنسيب والتشبيب ، تقع اللفظة عندهم محلّ أختها ، ويستبدل بها اللغوىّ مرادفتها حين يريد ، فهى من غنى اللغة ، وهى تصوّر اختلاف القبائل فى تسمية هذا اللّون من القول ، يطلقونها على من وصف المرأة أو تحدّث عنها أو تحدّث إليها ، أو لَهَا بها ، أو تخيل قولا فيها أو قصّة معها ، أو وصف ما تثير فى نفسه من حرقة ومن نعيم . وهذا نسيب أو تشبيب أو غزل يرسلونه فى أحكامهم وكتاباتهم من غير كبير تمييز أو عظيم اختلاف .

وقد أفرد الأدباء والكتاب من القدماء والمحدثين أبواباً للحديث عن الغزل وفصولاً لمختار النسيب على مرّ العصور ، ورووا من حكايات الغزلين ألواناً من القصص عمل فيها الخيال والاختراع عمله ، فباتت أقرب إلى الكذب والصنعة وأكثر هذه القصص متشابه ، فقد أحبّ العربىّ وتولّه وهام ، وسقم واعتل وجنّ ، ثم مات ميتة غريبة أرادها القاصّ شعرية تصلح للمسرح على اختلاف ألوانه من درامة أو فاجعة أو ملهاة .

وتستطيع أن ترجع إلى كتب القدماء كالأغانى والبيان والتبيين والحيوان والأمالى والكامل والعمدة وكتب الحماسة ويتيمة الدهر ودمية القصر والخريدة والذخيرة وكتب التراجم والمؤرخين ، ومؤلفات المحدثين كمختارات البارودى وحديث الأربعاء والغزل فى العصر الجاهلى والحب العذرى والغزل عند العرب .... فإنك واجد فيها صورة لمجنون ليلى وقيس لبنى وكثير عزة وعمر بن أبى ربيعة والعرجىّ وغيرهم تتكرر فى أساليب تختلف باختلاف العصور والأوطان .

وستجد أن الغزل على ألوان منه الحبّ العفيف وغير العفيف ، والحب الحقيقى والخيالىّ ، فهم ينظرون إلى الغزل من جانب الواقع والأخلاق ، فإذا جانَبَ التاريخ فهو غير حقيقى ، وإذا ابتعد عن اللفظ الشريف والغاية النبيلة فهو إباحى غير عفيف . والحب العفيف هو العذرى لأنه فى نظر كثير منهم حبٌ شاع فى بنى عذرة .

وستجد كذلك أسماء المعشوقات متشابهة تتردد فى الشعر كما تتردد « ألفير » و « هيلانة » وغيرهما من أسماء النساء فى الآداب الأجنبية ، فقد اخترع لامارتين أسماء لمعشوقاته ولقب الغربيون فى آدابهم معشوقاتهم بألقاب مستعارة ، لأن الناس فيما يبدو لا يقبلون فى يسر أن يشتهر عنهم حديث الحب وسيرة القلب وأن تذيع أسماؤهم الحقيقية وكناهم المشهورة وأُسرهم المعروفة فى حوادث الصبابة والوجد .

ولعل المجتمع الإنسانى ما يزال يجد فى المحبّ ضعفاً وفى ذكر المحبوب فضيحة لأن الحب من هزل الحياة ولهوها ، وقليل من الأدباء من يرضى بالهزل ومجانبة الجد . وقد عاشت بطلات الحب فى تواريخ الأدب مغمورات مشهورات معاً ، فإن أسماءهن تضيع فى ثنايا القصائد ولكن أوصافهن وما وقع لهن يتنقل على أجنحة الخيال ، كذلك كان الأدب العربىّ ، فقد أحبَّ الشعراء نساء فى القبائل أو فى البيوت والقصور يُرضى نزواتهن أن يكون الغزل فيهن .

ولا يعنينا فى هذا الكتاب أن نحكم على الأدباء بأخلاقهم أو مطابقة شعرهم

للواقع التاريخى مثل ما يعنينا سمو غزلهم وعظيم خيالهم وجميل صورهم ورائق لفظهم وبعدهم عن المثل الأعلى فى فن الغزل أو قربهم منه .

والأدب العربىّ لا يملك من مصادر التاريخ والعلم وثائق تعين على هذه الأحكام ، فقد جاءتنا عن سبيل الرواة قصائد القدماء وسيرهم ، فكانت المعلقات وقصص الغزل وحكايات الإخباريّين . ونظن الذين رووا هذه الأخبار آمنوا فى سذاجة وبساطة بكل ما ينقل إليهم وتقبلوا كلّ ما يلقى إلى سمعهم من غير شك كبير أو نقد علمىّ .

وأكبر مصادر الغزل فى أدبنا العربىّ كتاب الأغانى نقل إلينا ما رأى فى الكتب وما سمع من الرواة أخباراً متضاربة عن حادثة واحدة ، وأثبت لنا من الشعر ما تلصقه حيناً بشاعر وتلصقه حيناً آخر بشاعر غيره . وهذه الأخبار لم ترتّب على السنين ، ولم تنقل من دواوين معينة ، ولم تدر حول أبواب منظمة .

ولن يستطيع الأدب العربىّ أن يظفر بكتاب علمىّ فى تاريخ أدبه إلا إذا طبعت الدواوين طباعة علمية منظمة ، وحلّيت القصائد بالأحداث التاريخية الباعثة على نظم الشعر والحكايات الناشئة عنه . وعند ذاك تصبح روايات الأغانى وغير الأغانى مجدية فى فهم الحياة الاجتماعية وجوّ الشاعر ونفسيته .

والغزل أكبر عون لنا فى فهم هذه الحياة الاجتماعية ، فهو يرسم المرأة فى لباسها وفى أعضاء جسدها وفى حركاتها وتنقلها ومنهاج عيشها ، ويرسم ذوق العصر الذى كانت فيه ويصوّر فى شكل قريب إلى الأدب عواطف الشعراء فى ذلك العصر إذا كان للشعراء أن يمثلوا بدقّة حيّهم أو عشيرتهم أو بلدهم أو أمتهم .

وما دمنا لا نملك هذه المصادر الثابتة ، فنحن اليوم فى سبيل عرض هذا الشعر الموروث على أنه صورة قريبة الشبه بالعصر الذى قيل فيه من غير أن نقف عند أسماء القائلين وشخصياتهم وسير حياتهم من ولادة ونشأة ووفاة ،

تاركين إلى حين أمر موقعهم من التاريخ ومحلهم من الزمان والمكان ومنزلتهم من الصدق والواقع أو مجانبتهم للصدق والواقع .

ولهذا سنعمد إلى بيان ألوان الغزل وصوره فى عصورنا الأدبية ، لنعرض الحرقة والأسى والنعيم والسعادة عند الشاعر وعند المعشوقة ، ولنعرف ما كان بينهما من حديث وموقف وسيرة ، كأننا ندرس الفن دراسة علم الأحياء للإنسان ، يبين كيف ولد وكيف ترعرع ودب واكتمل ، وكيف شاع فى القبائل والبوادى والمدن والحواضر والأمصار والأقاليم ، على اختلاف العناصر والأجناس والأديان . أو كأننا نعرض نظرة الشعراء إلى المرأة وما يستحسنونه منها وما يستقبحونه وعلاقتهم بهن فى الحل والترحال وما عرض لهذه النظرة من تبدل فى القوة والضعف ، والرقة والصلابة ، والسمو والإسفاف ، خلال العصر الجاهلى فالإسلامى فالأموى فالعباسى ثم عصر الانحطاط والعصر الحاضر .

الفصل الثانى

الغزل فى الجاهلية

امرؤ القيس — النابغة الذبيانى — الأعشى —
زهير بن أبى سلمى طرفة بن العبد — عنترة العبسى .

لا نعرف من هو أول عربىّ تغزل شعراً ، ولا نستطيع أن نتخيل الأوصاف التى رسم بها أول امرأة عربية كانت موضع الغزل ، فقد ضاعت المصادر ، وضلّ المؤرخون فى بيداء التخمين فأرسلوا أقوالاً غريبة متناقضة ، فلم نعلم علم اليقين من هو الشاعر الغزل الأول . ولن نصدّق أن أول غزل عربىّ كان على هذا الشكل الذى رُوى لنا فى معلقات الشعراء ، فللأمم جميعاً طفولة فى الأدب ، ولا يصحّ أن يشذّ الأدب العربىّ عن هذه الطفولة فيبدأ بالشعر المجوّد الفخم الذى نقرؤه ونفهمه ونستطيع أن نقلّده ، ومن المعروف أنه ليس من سبيل للفرنسى أن يقلد الشعر القديم الفرنسى ، وليس للألمانى أن يجد الشبه بين شعره اليوم وشعره القديم .

وقد قرأنا مصادرنا الأدبية فوجدنا أنها تختلف فى أولية الشعر الجاهلى ، ووجدنا أن النقد الحديث يشكّ فى نسبة هذا الشعر إلى قائليه لبعد الزمن بين القول والجمع ، فلم نجد حيلة فى الحديث عن أوائل الغزل العربىّ إلا هذا الشعر الذى وصل إلينا على أنه شعر الجاهلية الثانية . ولعلّ هذا الشعر يشبه الجاهلية الأولى ، ونحن نعرف أن العربىّ يقلد فيأخذ ناشئٌ عن مسنّ وراوية عن منشد ، يتدارسونه فى أسواقهم وفى سمرهم وفى اجتماعاتهم ، فيتشبه شاعر بشاعر لضيق المجال وموطن الاختراع ، وهذا يبعث المشاكل فى النقد والدراسة وتاريخ الشعر وتحليله . غير أننا مضطرون إلى متابعة الأدباء القدماء فى ترتيبهم لأزمان الشعراء ؛ حتى تتبيّن لنا نظرية علمية فى ترتيبهم ووثائق فى تأريخهم ، فالنقد هين ولكن البناء عسير .

امرؤ القيس : جاءنا أنه أول من وقف واستوقف وبكى واستبكى ، فكأنهم يجدون فيه الغزل الأول ، وقف على الديار يبكى الأحبة ، وطلب إلى أصحابه أن يشاركوه الأسى فى الحزن لفراقهم . فالغزل بدأ حزيناً وولد باكياً كما يـُولد الإنسان ، وظل كذلك فيما نرى خلال العصور لا يشذ إلا فى القليل النادر . ولعل مرد ذلك إلى شقاء الحياة وأتعابها بين الرمال والخيم وقسوة الجزيرة على السكان والاضطرار إلى الرحيل والتنقل . وهذا الشقاء نفسه خلق الغزل ، فهناك لقاء بين الحبيب والحبيبة ما يلبث أن ينقطع وهناك سعادة ما تلبث أن تزول ، وهذا الانقطاع والارتحال فى سبيل الكلأ أو السعى إلى التجارة أو الرحيل إلى الغزو أو الانتقال فى مصالح الحياة طبع الغزل بطابع الفرح للقاء والحزن للوداع وجعله أمانى متلاحقة ودعاء متواصلا فى سبيل واحد هو الاجتماع الذى لا تفرق بعده ، اللّهم إلا مـَنْ رُزِق الغنى والترف والإمارة والفراغ فهو على شىء من الاختلاف غير يسير ؛ وذلك شأن الملك الضليل كما سمّاه المؤرخون .

فلقد عاش امرؤ القيس فى يسر من العيش ورخاء ، فاجتمع إلى النساء اتصل بهن وتفرّغ لهن فوصفهن ورسم لنا خلواته إليهن رأسفاره معهن ولحاقه وبهن ، فكأن حياته حياة زير نساء وكأن أيامه أيام غزل وتشبيب ، وهو مع ذلك كله أول من بكى واستبكى فى غزله ! . .

والذين نقلوا إلينا ديوانه جمعوا فيه هذا اللقاء المتواصل وهذا الرحيل المتتابع لا فى سبيل الكسب والتجارة وإنما فى سبيل المرأة ، فجاءت فيه أيامه الخاصة وغزواته عند النساء وإغاراته عليهن وفوزه وانتصاراته فى ذلك كله . وفى تلك الأيام صور حيّة لما كان بينه وبينهن ، فيوماً عقر المطيّة للعذارى وقضى سروره ولذته فقال :

ويومَ عقرْتُ للعذارى مَطيّتى   فيا عجباً من رحلها المتحمّلِ

فظل العذارى يرتمين بلحمها ... وشحم كهدّاب الدمقس المفتّلِ

ويجب أن يذكر القارئ ما كانت تكلّف الناقة آنذاك ، وما كان ينفق الشاعر فى سبيل هواه وغوايته ، حتى إذا وصل إلى الخدر قال :

ويوم دخلت الخدر خدر « عنيزة » ... فقالت لك الويلات إنك مُرْجلى
تقول وقد مال الغبيط بنا معـاً ... عقَرْتَ بعيرى يا امرأ القيس فانزلِ
فقلت لها سيرى وأرخى زمامه ... ولا تبعدينى عن جناك المعلَّلِ

وهناك يوم ثالث على ظهر الكثيب :

أغرك منى أن حبك قاتلى ... وأنك مهما تأمرى القلب يَفْعَلِ
وأنك قسمت الفؤاد فنصفه ... قتيل ونصف فى حديد مكبلِ
وما ذرفت عيناك إلاّ لتضربى ... بسهميك فى أعشار قلب مقتّلِ

ولسنا ندرى مبلغ الصدق فى هذه الانتصارات وهذه الأيام ، ولكننا نجد أن الشاعر الجاهلى فهم قدر الريق وعرف سحر العينين ، وأبكى النساء لفراقه بعد تردّد فى قبول صحبته وإلمامه ، وذكر ما فعلت بقلبه من قتل وأسر . وهذه هى المعانى التى طرقها مَنْ بعده فزاد عليها ونقص منها ، فهو فى ذلك إمام وهم مقتدون به حتى ليسلكون سبيله فى الأوصاف . ولنرو كيف دخل على صاحبته وقد أقبل الليل ، ومشت الفتاة إلى النوم فإذا به يغريها وإذا بهما فى نزهة ليلية جميلة يقضيانها فى حديث وسمر ، يصفها ثم يقول :

مهفهفة بيضاء غير مفاضة ... ترائبها مصقولة كالسَّجَنْجَلِ (١)
وجيد كجيد الريم ليس بفاحش ... إذا هى نَصَّتْهُ ولا بمعطّلِ (٢)

---

(١) مهفهفة : ضامرة البطن — مفاضة : كبيرة البطن — ترائب : النحر وهو موضع القلائد — مصقولة : مجلوة — السجنجل : المرآة .

(٢) فاحش : أى مسرف فى الطول — نصته : رفعته .

وفرع يزين المتن أسود فاحم أثيث كقنو النخلة المتعثكل (١)
غدائره مستشزرات إلى العلا تضل المدارى فى مثنى ومرسل (٢)
وكشح لطيف كالجديل مخصَّر وساق كأنبوب السقىّ المذلّل (٣)

إنها بيضاء ضامرة البطن يبدو نحرها كأنه مرآة فى نقائه وبياضه ، وجيدها كجيد الغزال محلّى جميل ، وشعرها يبلغ إلى ظهرها فيزينّه بسواده الفاحم كأنه فى تجعّده كأغصان النخل ، وغدائرها مجدولة مقصوصة ، وأما ظهرها وساقاها فهما من الإبداع فى التكوين كزمام الناقة ونبات البردىّ .

وقد وصف الرأس والشعر والنحر والظهر والساق واختار لها ألواناً وأصباغاً ممّا حوله فلم يغفل منها اللون والظلال كما نقول اليوم ، وقد تبعه فى هذا شعراء الجاهلية ومن بعدهم فساروا على طريقته ، وطرقوا الغزل الحسىّ المادىّ فى وصف الأعضاء جميعاً وإيجاد ما يشبهها ، فكأنهم يكرّرون قوله أو يجدون عسراً فى تنكب سبيله واختراع أسلوب جديد فى الوصف ، أو كأنهم نظروا إلى الغزل نظرته من أنه نحت تمثال للمحبوبة يضع الرأس والجسم والأعضاء ، ثم يختار شكل الرأس ولون الشعر والعينين والفم والأسنان وبياض النحر والجسد واستدارة اليدين والرجلين ثم يكسوها الأساور والخلاخل ويدهنها بالطيب ويختلف إلى الأسنان فيجعلها بيضاء . وهو حرّ بعد ذلك فى أن يتخيل ريقها العذب ، وسحر عينيها ، والتفاتة جيدها ، وفتنة منطقها ، وعذوبة حديثها ، فكأنه بعد أن نحتها حركها ثم أكسبها النطق ، ووصف أثر ذلك كله فى نفسه .

وكأنه بعد ذلك أقبل إليها يغازلها فتمايلت عليه وانتشر الطيب منها وأضاء

---

(٣) فرع : جديلة الشعر هنا — المتن : الظهر — فاحم : أسود — أثيث : غليظ — قنو : شمراخ — المتعثكل : المتراكم بعضه فوق بعض .

(٤) مستشزرات : مجدولات — تضل : تغيب — المدارى : ج مدرى وهو ما يخلل به الشعر ويحك به الرأس — مثنى : متجعد — مرسل : غير متجعد .

(٥) الكشح : ما بين الخاصرة إلى الضلع الخلفية — الجديل : زمام الناقة — السقى : نبات البردى — المذلل : المحروس .

بياض جسدها ، فوصفها عارية ، ووصفها فى مرطها ، ورسمها فى سيره معها وعمد إلى تنعمها فرآها تطيل النوم .

وهو فى هذا الوصف لا يختلف عنه فى الأبواب الأخرى من الشعر ، فكأنه يرسم الرمال والجبال ، أو يصف الخيل والناقة ، أو يصوّر السماء والماء ، وكأنه يريد أن ينتهى إلى الفخر بين أترابه وسامعيه وقد عاد من صيد النساء كما يعود من صيد الحيوان وفى جعبته الطرائد ، وفى ذهنه ذكرى الرحلة والغزوة :

سموتُ إليها بعد ما نام أهلها ... سموّ حَبَاب الماء حالاً على حالِ (١)
فقالتْ : سباكَ الله إنك فاضحى ... ألست ترى السّمار والناس أحوالى (٢)
فقلت : يمين الله أبرح قاعداً ... ولو قطعوا رأسى لديك وأوصالى (٣)
حلفتُ لها بالله حلفة فاجر ... لناموا فما إن من حديث ولا صالِ (٤)
فلما تنازعنا الحديث وأسمحتْ ... هصَرْتُ بغصن ذى شماريخ ميّال (٥)
وصرنا إلى الحسنى ورقّ كلامنا ... ورضتُ فذلّتْ صعبةً أىّ إذلال (٦)
فأصبحتُ معشوقاً وأصبح بعلُها ... عليه القتام ، سيئُ الظن والبال (٧)
يغطّ غطيط البكر شدّ خناقه ... ليقتلنى والمرء ليس بقتّال (٨)

فقد نهض إليها بعد أن نام أهلها ، فلما رأته خافت الفضيحة ، ونبهته إلى السمار والناس ، فحلف أنه لا يبرح مكانه ولو أوردوه الردّى وهو يعلم أنه ما قدم إلا بعد سكوت السامر وخمود النار . فلما تحدّث إليها لانت له وتسلّم جسدها كغصن ميال ورقّ الحديث وسهل الصعب وأصبح وهى عاشقة

---

(١) سموت : نهضت — الحباب : الفقاقيع التى تظهر على سطح الماء .
(٢) سباك الله : رماك بالاغتراب وأبعدك — السمار : ج سامر ، وهم المجتمعون ليلا .
(٣) أبرح قاعداً : لا أبرح قاعداً فى مكانى — أوصالى : مفاصلى .
(٤) فاجر : فاسق — لناموا : لقد ناموا — الصالى : المستدفئ بالنار .
(٥) أسمحت : لانت وانقادت — هصرت : جذبت — شماريخ : أغصان .
(٦) رضت : ذللت الصعب منها — ذلت : لانت .
(٧) القتام : غبار الخزى — سيئ البال : سيئ الخاطر .
(٨) البكر : الفتى من الإبل .

وأصبح بَعْلها كثير الهمّ لتغير حالها معه ، ينام نوم المحزون ويغط غطيط الإبل .

وهذا فخر جديد بالحب والشجاعة والنصر كما قلنا ، فهو يردّد فى قصيدته أمام أترابه وسامعيه أنه زار المرأة فى خدرها وبلغ منها ما يريد على رغم الأهل والجيران والسمار والناس وانتصر على زوجها ، فهو يعلم أنه يهذى بتهديده وليس يفعل أمراً . وقد وصف امرؤالقيس فى قصيدة واحدة ما وصفه الشعراء بعده من جسم المرأة ، ووصف زيارته لها فى الليل وتحدّثه إليها ، ونقل إلينا ما دار بينهما من حوار قصير مقتضب ، نرى أنه سيطول ويمتد عندما نبلغ عمر بن أبى ربيعة ، ثم رسم النصر الذى أحرزه على زوجها ، وسنرى ذلك عند غيره بعده ممن يسير على سننه ويقتدى بخطاه .

ويلاحظ القارئ أن امرأ القيس ضمّ فى معلقته أخباراً عن نساء عدة ، وصفهن وزارهن وبلغ منهن مأربه ، فكأن المعلقة تحوى قصائد عدة من ديوانه جمع بعضها إلى بعض ، فقد تسوّر البيوت غير مرة ، وهصر بالفود وبالغصن غير مرة . لذلك لن نروى من قصائده الباقيات فى ديوانه فكلّها شبيهة بهذا الذى نقلنا ، وكلّها تدل على أن الشاعر أصاب من الغزل ما لم يصبه غيره ، وهو السابق فيما زعموا وهم اللاحقون فيما نرى .

والنابغة الذّبيانى (زياد بن معاوية) من مشاهير شعراء الجاهلية ، يعدّ فى الطبقة الأولى عند كثير من النقاد ، وقد هجم كذلك على الغزل ووصف النساء فقال من قصيدة :

غرّاء أكمل من يمشى على قدم حسناً وأملح من حاورته الكلما[1]

فهى بيضاء ، وهى أحسن النساء ، بل أحسن من يمشى على قدم حسناً وملاحة . ثم وصفها فى قصيدة أخرى فقال :

---

(١) غراء : بيضاء .

قامت تراءى بين سجفى كلّة كالشمس يوم طلوعها بالأسعُد [١]
أو درة صدفيّة غوّاصُها بهج متى يرها يُهل ويسجُد [٢]
أو دمية من مرمر مرفوعة بُنيت بآجر يشاد وقرمد [٣]
سقط النّصيف ولم ترد إسقاطه فتناولته واتقتنا باليد [٤]
بمخضّب رخص كأنّ بنانه عنم يكادُ من اللّطافة يعقد [٥]
نظرت إليك بحاجة لم تقضها نظر السقيم إلى وجوه العوّد

حتى يقول :

لو أنها عرضت لأشمط راهب عبد الإله صرورة متعبد [٦]
لرنا لرؤيتها وحسن حديثها ولخاله رشداً وإن لم يرشد

فهى بيضاء كالشّمس وهى درّة جميلة ودمية مرمرية ، وحين سقط خمارها ظهرت أصابعها المخضبة ، ونظراتها ناعسة ، ولو أنها عرضت لراهب مسنّ لم يعرف النساء عمره لجن بها . وقد نقل الرواة أنّ هذه القصيدة قيلت فى المتجردة زوجة النعمان ، وأن المنخل اليشكرى كان يحبّها وقد وصفها فى قصيدة جميلة قال فيها :

ولقد دخلت على الفتا ة الخدر فى اليوم المطير
والكاعب الحسناء تر فل فى الدمقس وفى الحرير
فدفعتها . فتدافعت مشى القطاة إلى الغدير
ولثمتُها فتنفّست كتنفس الظبى البهير

---

(١) السجف : الستر الرقيق — برج الأسعد : برج الحمل ، والشمس تكون فيه على أكمل ضياء .
(٢) الدرة : اللؤلؤة .
(٣) الدمية : التمثال من المرمر — القرمد : الخزف المشوى .
(٤) النصيف : الخمار وهو نصف الثوب .
(٥) البنان : الأصابع — العنم : شجر لين الأغصان أحمر اللون .
(٦) الراهب : المتعبد — الأشمط : الأشيب — صرورة : الذى لم يتزوج .

وبدت وقالت يا منخّل ما بجسمك من فتور
ما مس جسمي غير حبّك فاغربي عني وسيري

وبعيدٌ بين ما نسب إلى النابغة وما ألصق بالمنخّل ، ولكننا نرويه على أنه من الغزل في العصر الجاهلي لنصل إلى أن النابغة لم يخرج في أوصافه عما عرفنا من ألوان عند امرئ القيس ، وقد زاد عليه اليشكريّ في ألوانه فشبهها بالقطاة تمشي إلى الغدير وأنها تتنفس كتنفس الظبي البهير .

والأعشى (ميمون بن قيس) وحده يقف مع امرئ القيس في صف واحد أمام محراب الغزل ، فقد تغزل بالنساء واعترف بأنه كان يسبيهن ويخرجهن من خدورهنّ ، وأنه ظل عمره يحنّ إلى لقائهن والتغزّل بهن ، فوصفهن بأوصاف رقيقة جميلة منها قوله :

حرّة طفلة الأنامـــل ترتـ ـبّ خاماً تكفّـه بخلال (١)
وكأنّ السّموط عكّفها الـ ـلكّ بعطفي جيداء أم غزال (٢)

فهي لينة الأنامل والشعر وقلائدها أشبه بشعر علّق بجيد غزال . أما لون الوجه وأعضاء الجسم فقد فصّل الشاعر القول فيه :

من كل بيضاء ممكورة لها بشر ناصع كاللّبنْ (٣)
عريضة بوص إذا أدبـــرت هضيم الحشا شختة المحتضن (٤)

بيضاء ممتلئة بعض الشيء لونها أبيض ناصع وعجزها عريض في بطن هضيم وحضن دقيق . وهنا زاد الأعشى في وصف العجز والحضن فحسب .

---

(١) طفلة : لينة — ترتب : تفتل — السخام : الشعر اللين : الخلال : المدرى وهو المشط
(٢) السموط : القلائد — عكفها : علقها — الجيداء : طويلة العنق .
(٣) ممكورة : ممتلئة من اللحم مع دقة العظام — البشر : الجلد .
(٤) بوص : عجز — الحشا : ما في البطن من الأمعاء — شختة : لطيفة ودقيقة — المحتضن الحضن .

وأشهر شعره فى الغزل صدر قصيدته اللامية التى يقول فيها :

غراء فرعاء مصقول عوارضها تمشي الهوينا كما يمشي الوجي الوحل[١]
كأن مشيتها من بيت جارتها مر السحابة لا ريث ولا عجل
صفر الوشاح وملء الدرع بهكنة إذا تأتى يكاد الخصر ينخزل[٢]

إنها بيضاء طويلة الشعر مصقولة الأسنان بطيئة المشية ، دقيقة الخصر عظيمة الأرداف . وصاحبة الأعشى قوية التأثير عظيمة الفتنة فيقول فى جمالها :

لو أسندت ميتاً إلى نحرها عاش ولم ينقل إلى قابر
حتى يقول الناس مما رأوا يا عجباً للميت الناشر

فهى تحيي الميت حين يستند إلى نحرها وهى تفعل المعجزات بجمالها وسحرها . ويقول كذلك فى وصفها :

بيضاء ضحوتها وصفـ راء العشية كالعراره[٣]
وسبتك حين تبسمت بين الأريكة والستاره
بقوامها الحسن الذى جمع المدادة والجهاره[٤]
كتميل النشوان يرـ فل فى البقيرة والإزاره[٥]
وغدائر سود على كفل تزينه الوثاره[٦]

---

(١) غراء : بيضاء — فرعاء : كثيرة الشعر طويلته — العوارض : الأسنان — الوجى : الذى حفى قدماه أو حافره — الريث : البطء .

(٢) صفر الوشاح : وشاحها : خال من دقة خصرها — ملء الدرع : كبيرة الأرداف — بهنكة ضخمة الخلق — تأتى : تترفق — ينخزل : ينقطع .

(٣) صفراء العشية : لأنها تتزين وتطلى جسمها بالزعفران والطيب — العرارة : شجر قدر شبر له نور أصفر .

(٤) الجهارة : الروعة .

(٥) البقيرة : ثوب يشق فيلبس بغير أكمام — الإزارة : الملحفة .

(٦) الوثارة : كثرة اللحم والطراوة .

وأرتك كفًّا في الخضا ب وساعداً مثل الجباره[١]
وإذا تنازعك الحديـ ث ثنت وفي النفس ازوراره

وهذه الصورة ترينا معشوقة الأعشى بيضاء البشرة فى النهار فإذا أمسى الليل تطيبت بالزعفران ، فى قوام بديع مديد تتثنى وفى ثوب يبين عن ساعديها تختال كالنشوان ، وغدائر شعرها تهبط على كفل وثير ، وكفها مخضب ، وهى ذات دلال فى حديثها .

وهكذا رأينا أن الشاعر امتد إلى كل شىء فوصفه ، فكأنه وقف ريشته على اصطياد الألوان والظلال ؛ ومثل هذا كثير فى ديوانه يمتع النفس والقلب جميعاً .

وزهير بن أبى سُلمى شارك على رصانته ووقاره فى معركة الغزل ووصف المرأة وعرض لها فى مطالع قصائده ، وبيَّن لنا عشقه ، فقال فى « أسماء » :

قامت تبدّى « بذى ضال » لتحزننى ولا محالة أن يشتاق من عشقا[٢]
بجيد مغزلة أدماء خاذلة من الظباء تراعى شادناً خرقا[٣]
كأن ريقتها بعد الكرى اغتبقت من طيِّب الراح لما يَعْدُ أن عتقا[٤]

قامت تتراءى لى بعنق كجيد الغزالة المتباطئة خالصة البياض وأنى للعاشق أن يقف عن الشوق ، وأما ريقتها فهى الراح من طيِّب الراح لم يفسد ولم يفتر عن بعث النشوة والسكر . وهنا وصف زهير رأسها والتفاتة عتقها وما فى ريقها من سحر . وهو يقول فى قصيدة أخرى :

---

(١) الجبارة : سوار عريض .

(٢) ذى ضال : موضع .

(٣) أدماء : خالصة البياض — خاذلة : متأخرة عن الظباء — الخرق : الذى لا يقدر أن يتحرك .

(٤) اغتبقت : شربت على ريقها غبوقاً وهو شرب الليل .

تنازعها المها شبهاً ودرّ الـ بحور وشاكهت فيها الظباءُ
فأما ما فويق العقد منها فمن أدماء مرتعها خلاءُ
وأما المقلتان فمن مهاة وللدر الملاحة والنقاءُ

ففيها شبه من البقر فى العيون ومن الدر فى الصفاء ومن الظباء فى طول العنق ، وهى بيضاء حرّة ليس فى الفلاة من يراعيها ، وبذلك ألح على معانيه المتداولة من سواد العيون وصفاء البشرة .

وما نرى عند زهير إلا شبه البقر والظباء ودر البحور فى الصفاء ، والنساء فى نظره مخبّآت فى خدورهن ليس لهن إلاّ الزفاف والزواج ، فهو قاس عنيف حتى ليصور زيارة المرأة كزيارة الحمّى :

أبت ذكَرٌ من حب ليلى تعودنى عياد أخى الحمى إذا قلت أقصرا

ولانرى من ضير عليه فى ذلك ، فهوقد دخل المعركة ليستهل قصائده وينتقل من الغزل إلى أغراضه على جسور من الألفاظ يقول فيها : « دعها . . . ودع ذا . . . » لينتهى إلى غايته من مديح وهجاء ، وما ذكر ليلى وسلمى وأسماء إلاّ أسباب وممهدات ، فإذا وقعنا على غزل لطيف فهو من بديع الصنعة والتقليد ، وذلك مثل قوله :

متى ترى دار حىّ عهدنا بهم حيث التقى الغور من نعمان والنجدُ
لهم هوى من هوانا ما يقرّبنا ماتت على قربة الأحشاء والكبدُ

وهو من قبيل التملح بذكر المرأة والتغزل بها ، فزهير قد شغل بنزاع القبائل ونزوع نفسه بعد هرمه إلى الله ، وتذكر الحجج التسعين وقد سلخها فغدا قريباً من حفرة يهوى فيها ، يحثه سائق الردى إلى أن يبعث يوم النشر وقد خلف وراءه صفحة بيضاء خالية من العبث فى الغزل والمجون فيه .

وأما طرفة بن العبد فقد كان قريباً من منهل الغزل ، أحبّ كما يبدو فى شعره وهام ، وتعلّق قلبه فوصف ذلك فى قوله :

فكيف صبوت أو ترجو مهاة منعمة تُزَارُ ولا تزورُ
جلت برداً فهش له فؤادى فكدت إليه من شوق أطيرُ
برهرهة يحار الطرف فيها وليس ينال من خولى اليسير

فهى مهاة فى عينيها وهى طيّبة الأسنان بيضاء الجسد ، يخف لها الفؤاد ويرتاح ويحار الطرف فيها ويضيع . وطرفة يلوم الزاجر واللاحى فى حبه :

ألا أيهاذا الزاجرى أحضر الوغى وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدى ؟

إن المرء غير مخلّد فلينفق ماله فى الفتوة واللذة وقد فعل فيما يبدو :

وقد ذهبت سلمى بعقلك كلّه فهل غير صيد أحرزته حبائلُهْ
كما أحرزت أسماء قلب مرقّش بحبّ كلمع البرق لاحت مخايله
فلما رأى أن لا قرار يقره وأن هوى أسماء لا بد قاتله
ترحّل من أرض العراق مرقش على طرب تهوى سراعاً رواحله ،

وكما أن الحبائل لا تأخذ غير الصّيد فإن الجمال لا يستهوى إلاّ أهل الصبابة ، الم تر إلى المرقش عمّى وقد أحرزت أسماء قلبه بحب كلمع البرق لاح فى قلب السحاب . فلما رأى بعد القرار عنه رحل إلى العراق فى طلب الراحة والهدوء ، ولكنه قضى نحبه فيها . فلم لا أكون كعمى ولم لا يكون قلبى كقلبه :

فوجدى بسلمى مثل وجد مرقش بأسماء إذ لا تستفيق عواذلُه
قضى نحبه وجداً عليها مرقش وعلّقتُ من سلمى خبالاً أماطله

واستبد الحب بطرفة فوقف مع محبوبته ساعات واستوقفها كذلك :

قفى قبل وشك البين يا ابنة مالك وعوجى علينا من صدور جمالكِ
قفى لا يكن هذا تعلّة ساعة لبين ولا ذا حظنا من نوالكِ
أخبِّرك أن الحىّ فرّق بينهم نوى غربة ضرّاوة لى كذلكِ
ولم ينسنى ما قد لقيت وشفّنى من الوجد أنى مولع بالدكادكِ

وفيها يبسط حرقة وأسى لهذا الفراق ، فهو مولع بمواطن الهوى والشباب وقد بلغ به الحبّ أنه لا ينام :

بلّغا خولة أنى أرقٌ ما أنام اللّيل من غير سَقَمْ
كلما نام خلىٌّ باله بتُّ للهمّ نجيًّا لم أنمْ
منع التغميض منى ذكرها فهى همّى وحديثى وسدمْ (١)
صادت القلب بعينى جؤذر وبخدّ فوقه المرجان جمّ (٢)
وبمستنٍّ على أردافها مسبكرٍّ كعناقيد السّخم (٣)
وجبين لم يعبه حفّه زانه الخدّ وعرنين أشمّ (٤)
أحسن الناس إذا ما سئلت وبدا الخلخال ساقاً بقدم
منية النفس إذا ما جرّدت ومشت حول حشايا وقرم

ولسنا ندرى كم ترك طرفة لغيره حين وصف خولة وأرقه فى هواها فقد صادته بعينى جؤذر وخدّ كأنه المرجان وشعر كعناقيد الريش وجبين ناصع ، فهى أحسن الناس إذا ما سئلت أمراً ، وهى أمنية النفس حين تمشى بين السرير والستائر فى بيتها وقد خلت إلى النعيم والسرور ، فقد وصف العينين والخدّ والأنف والشعر والجبين والخلخال فى ساقها ، ثم رسم قلقه وأرقه وهمّه . ومثل هذا كثير فى ديوانه ، يزور صواحبه والناس هجّع ويعود بغنيمة أىّ غنيمة .

وقد نقلت إلينا كتب الأدب شعراء جاهليين تغزّلوا فى قصيدهم واستفتحوا بالنسيب فأجادوا حيناً وسقطوا أحياناً ، وهم لا يخرجون فى أغراض الغزل وأساليبه عما رأينا عند فحول الجاهلية ، فلا فائدة من عرض هذا الشعر وتعديد هذه الأسماء ، فلسنا نؤلف تاريخاً فى الأدب وإنما نبسط فنًّا من فنونه نعرض فيه لمن

---

(١) سدم : هم .
(٢) المرجان : صغار اللؤلؤ — جم : كثير .
(٣) المستن : الشعر الذى يتهدل على أردافها لطوله — أرداف : ج ردف ، وهو العجز — مسبكر : طويل ممتد — السخم : ج سخام وهو الريش اللين .
(٤) حفه : أحاط به — زانه : زينه — عرنين : أنف — أشم : مرتفع .

تطرّق إلى الغزل لعلنا نجد عنده جديداً فى هذا الباب أو اختراعاً فيه .

ونقلت إلينا هذه الكتب كذلك شعراء جاهليين اختصّوا حبهم بامرأة واحدة فى كلّ شعرهم ، ولكنهم جعلوها سبيلا إلى معانى البطولة والثأر فى الحماسة والهجاء ، فكانت فى دواوينهم وسيلة لا غاية ، وهم مع ذلك لم يخرجوا عن دائرة الشعراء الفحول فى هذا الغزل ، ولم يشتهروا بعفتهم وجنونهم كما اشتهر العذريون فى الحجاز بعدهم ؛ لذلك لن نحصى هنا دقات قلوبهم وألوان رسومهم وأنماط وصفهم للمرأة فهذا كثيرُ ، ولكننا سنعرض لشاعر واحد وهو عنترة نختم به بحثنا ، لأننا نرى أن شعره بسيط سهل لا يتّصل بالجاهليين كما يتصل بمن بعدهم ، ولعلّ الرواة ألصقوا بديوانه كلّ ما كان فى الفخر بسواد البشرة أو الشجاعة عند المحبوبة .

أحب عنترة العبسيّ عبلة ، وحارب فى سبيل هواها كما يزعم القدماء فيقول :

يا دار عبلة بالجواء تكلمى … وعمى صباحاً دار عبلة واسلمى
دار لآنسة غضيض طرفها … طوع العناق لذيذة المتبسّم

فهو يحيى الدار ويذكر الآنسة الجميلة غضيضة الطرف لذيذة الفم شهيّة العناق ، ويقول فيها يذم الفراق :

غراب البين مالك كلّ يوم … تعاندنى وقد أشغلت بالى
كأنى قد ذبحت بحدّ سيفى … فراخك أو قنصتك بالحبال
بحق أبيك داوى جرح قلبى … وروّح نار سرّى بالمقال
وخبر عن عبيلة أين حلّت … وما فعلت بها أيدى الليالى
فقلبى هائم فى كلّ أرض … يقبّل إثر أخفاف الجمال
وجسمى فى جبال الرّمل ملقى … خيال يرتجى طيف الخيال
وفى الوادى على الأغصان طير … ينوح ونوحه فى الجو عال
فقلت له وقد أبدى نحيباً … دع الشكوى فحالك غير حالى

أنا دمعى يفيض وأنت باك بلا دمع فذاك بكاء سال
لحا الله الفراق ولا رعاه فكم قد شكّ قلبى بالنبال
أقاتل كلّ جبار عنيد ويقتلنى الفراق بلا قتال

وهذا الشعر لا يشبه ما رأينا من غزل الجاهليين ، فهو لا يصف الجسد ولا يعبأ به وإنما يصف الحبّ فى نفس العاشق ويرمى غراب البين بتهمة التفريق ، ويهيجه الطير على الأغصان فينوح ويفيض دمعه ، وهذا قريب من شعر أبى فراس الحمدانى حين سمع حمامة تنوح ، بل هو يشبه فى لفظه قول المتنبى : « وتقتلنا المنون بلا قتال » . وما نرى براعة فى إلصاق هذا الشعر بعنترة كما نرى عند من اصطنعوا أشعار العذريين ، فقد تشبهوا بشعر العصر الأموى فى الحجاز فبلغوا بعض ما يريدون ، ولكنّ صانع عنترة أخطأه التوفيق فأخرج شعره من الجاهلية ولم يقرأ دواوين الغزلين قبل الإسلام ، ولم يفهم خصائص الوصف المادىّ عندهم . ولقد سقنا عنترة لنخرجه من شعراء الجاهلية ، لئلا يتساءل ناقد عن قصورنا فى قراءة غزله .

ولولا هذا الشك الذى يكتنف أكثر الشعر الجاهلىّ لخرجنا بصورة للغزل قريبة من الحق والوضوح ، ولكننا لن نوفق فى هذا ما دامت عناصر العلم مفقودة وصكوك التاريخ لم تصل إلينا ، فنحن سنكتفى بالعرض دون الحكم التاريخى .

* * *

وخلاصة القول أننا رأينا فى الغزل الجاهلىّ وصفاً جسديًّا للمرأة ورسماً لإحساس الشعراء أمام هذه التماثيل البشرية ، ينحنون أمامها خاشعين لبياض الجسد ونقاء البشرة وصفاء الأسنان ، وطول الشعر وعذوبة الريق وارتفاع العنق وسواد العينين والتفاتة الغزال ، ودقة الخصر وثقل الأرداف ، ثم يعجبون بالترف والنعيم لنؤوم الضحى والمتطيّبة والكسول فى دلّ وتثن ؛ ويسكرون بهذا كله إذا أتيح لهم اللقاء والنوال .

ولكن أين العشق العميق واللهو الطويل والقصص الذى يدور والحديث

الذى يقع ؟ إنهم فرسان يغيرون على أخبية المحبوبة فى الظلام أو فى ضوء القمر فيسلُّون السيوف ويهاجمون الحرّاس ويقضون اللّيل فى سمر جميل وغزل لطيف من غير شك . ولكنهم لم يصفوا لنا ما كانوا يفعلون كما وصفه العصر الأمويّ حين استراح شعراؤه من الغارات ، وتخلّصوا من الغزو ، وركنوا إلى القرار والترف والدعة والغناء واللين والبطالة ، بعد أن أغدق عليهم خلفاء دمشق وأرادوهم أن يحبسوا فى الحجاز وأن يبتعدوا عن الملك والسياسة وما إليهما ، وأن يلتفتوا عن طعنات القتال والحراب إلى طعنات المقل والحواجب .

فلننظر ما كان منهم بعد هذه الراحة وهذا النعيم من شعر فى الغزل وقول فى المرأة ! . .

الفصل الثالث

الغزل فى صدر الإسلام

حسان بن ثابت — كعب بن زهير

ظهرت الدعوة إلى الإسلام فاشتغل العرب فى الجهاد ، وقامت بين المسلمين والمشركين حروب فى سبيل الدين الجديد اشتدت وعنفت حتى شغلت الناس بأخبار المعارك والانتصارات ، واشترك الشعراء فيها كلّ يعزّز فريقه ببيانه وكلّ يرمى عدوّه بهجاء وينصر صديقه فى مديح . فلم يكن ثمة مجال للّهو أو الفراغ أو الاستماع إلى حديث القلب والنفس والعبث بالنساء والتحدث إليهن أو الالتفات إلى وصفهن . ولعل الذين كانوا يلهون ويعبثون كانوا يخفون اللهو والعبث ولا يصفونه ، أو لعلّ الناس لا يجتمعون له ولا يرددونه تحرّجاً من إثم وخوفاً من منع فقد حرّم الدين الجديد التحرش بالمحصنات ، لذلك سكت صوت الغزل فى صدر الإسلام .

ولم تقتصر الحروب على الجزيرة العربية وإنما تعدّتها إلى البلاد المتاخمة فى أرض الشام والعراق فشغل الناس كذلك بأخبارها ، وأصبح الشعر فى صدر الإسلام يدور على التفاخر بين خصوم الدين وأنصاره ، وكان فى الخصوم عبدالله بن الزبعرى ، وكان فى أنصاره عبد الله بن رواحة وكعب بن مالك وحسان بن ثابت وكعب بن زهير . ولم يصلنا عن هؤلاء غزل إلا ما قيل فى الجاهلية ، اللهم إلا حسان بن ثابت وكعب بن زهير ، والناظر فيه يحار فى أسلوبه وفى زمان إلقائه ونظمه .

أما حسان بن ثابت فقد نقل إلينا أنه أشرف على الستين حين اعتنق الإسلام ومن الصعب على رجل فى هذه السن أن يسلك مسلكاً جديداً فى القول ، بل من الصعب أن يبتعد عن أقواله الجاهلية وفيها افتتاح قصيدة بالغزل ؛ وخاصة إذا عرفنا أن الرجل لم يتغزل كغيره فلم ينبعث عن قلبه حبّ وإنما كان يخرج من شفتيه كلام يشبه الحرقة والأسى والفراق والبين فى تقليد وصناعة .

ولعلّه تعزل قبل الأربعين فقال :

تراءت لنا يوم الرحيل بمقلتى ... غرير بملتف من السّدر مفرد (١)
وجيد كجيد الريم صاف يزينه ... توقّد ياقوت وفصل زبرجد (٢)
كأنّ الثريّا فوق ثغرة نحــرها ... توقّدُ فى الظلماء أىّ توقّد (٣)

فهو من مدرسة الجاهليين فى أوصافه المادية الحسيّة يجد فى مقلتى صاحبته عينى ظبى وفى جيدها جيد الريم أبيض صافياً . فلما جاء الإسلام لم يصنع شيئاً فى باب الغزل وإنما دخل فى خدمة الدين ونافح عن النبىّ فى قصائد تملأ ديوانه .

وأما كعب بن زهير فقد تغزل فى قصيده قبل الإسلام وبعده ، وقال فيهما شعراً نحب أن نعرضه هنا لنوازن بين قديمه وحديثه :

أرى أم شدّاد بها شبه ظبية ... تطيف بمكحول المدامع خاذل (٤)
أغنّ غضيض الطرف رخص ظلوفه ... يرود بمعتمّ من الرمل هائل (٥)

---

(١) غرير : ظبى — السدر : شجر النبق .

(٢) الريم : الظبى الأبيض الخالص البياض — الزبرجد : الزمرد .

(٣) الثغرة : نقرة النحر فوق الصدر .

(٤) خاذل : تخلف عن أمه .

(٥) أغن : صغير فى صوته غنة لم يصف بعد — غضيض الطرف : فاتر الطرف — رخص لين ، أى ظلوفة لينة لم تشتد ولم تقو — يرود : يذهب ويجىء أى يرعى — اعتمّ : تم — الهائل من الرمل : الذى لا يتماسك إذا وطىء .

وترنو بعينى نعجة أمّ فرقــد تظل بوادى روضة وخمائل (١)
وتفترّ عن غرّ الثنايا كأنهــا أقاح تروّى من عروق غلاغل (٢)

فصاحبته شبيهة بالظبية ، رقيقة الصوت ، فاترة الطرف ، تضحك عن أسنان بيضاء كأنها الأقحوان قد روّى عروقه المتغلغلة فى الثرى فنشر المسك والطيب ، وهذه أوصاف ماديّة حسيّة للعينين والصوت والأظلاف والثنايا والرائحة ، لا تختلف عن أوصاف الجاهلية فى شىء .

فلما قدم كعب على النبى أنشده قصيدته المشهورة وفى مطلعها غزل كذلك قال فيه :

بانت سعاد فقلبى اليوم متبــول متيم إثرها لم يفد مكبول (٣)
وما سعاد غداة البين إذ رحلــوا إلاّ أغن غضيض الطرف مكحول
تجلو عوارض ذى ظلم إذا ابتسمت كأنه منهل بالراح معلــول (٤)

وسعاد شبيهة بأم شداد فى صوتها وطرفها وأسنانها وريقها ، بل إنها اتخذت مصراعاً من القصيدة السابقة ، فالشاعر الإسلامى هو الشاعر الجاهلى نفسه لم يتغير ولم يتبدل ، بل هو لا يستطيع أن يخترع جديداً فى زمن قصير ، لذلك نحسب أن الغزل فى صدر قصيدته جاهلى أضاف إليه مديح النبى والدين ، وقال القصيدة فى حضرة النبىّ فسكت الناس عن غزلها وغفروا له خروجه على وقار الموقف بما تبع الغزل من أبيات فى التقديس والتعظيم ، ولولا هذا لضاعت القصيدة كلّها ، كما ضاع غيرها واطواها الناس كما طووا غيرها مكتفين ببلاغة القرآن .

---

(١) ترنو : تديم النظر — الروضة : يجتمع فيها الماء تنبت البقل ، ولا تسمى روضة إذا كان بها شجر — الخمائل من الرمل : ما كان فيه شجر ونبت .

(٢) تُفترّ : تبسم — غر : بيض — تغلغل : دخل فى أمر لا يهتدى له غيره .

(٣) بانت : فارقت — متبول : أصيب بالهوى — متيم : أذله الحب .

(٤) العوارض : الأسنان — الظلم : ماء الأسنان — معلول : سقى مرتين .

لذلك نام الغزل خلال صدر الإسلام ولم يستفق إلا بعد أن انتقلت الخلافة إلى دمشق وسكن الحجاز وأصابه الترف والدّعة ، فهبّ بعد ركود وعاد سيرته فى نحت التماثيل للنساء ، يصف اللّواتى يراهن أو يصاحبهن ، ويرسم ما كان بينه وبينهن ، وينقل إلينا الأحاديث والسير ، فيحلّق بجناحين من قوة الشعر الجاهلى الذىّ ورثه ومن بلاغة الكتاب الجديد وأسلوبه الرقيق ، وبذلك يصبح العصر الأموى وريثاً لأدبين : أدب الجاهلية وأدب القرآن ؛ وسنرى ما يكون منه فى الغزل وقد انصرف إليه الناس وأعجبوا به وسكنوا إليه .

الفصل الرابع

الغزل فى العصر الأموى

الغزل فى الحجاز : المدرسة البدوية

انتقل السلطان من الحجاز إلى الشام ، وأصبح المسئولون يهتمّون بالفتح والإدارة والسياسة والاجتماع والدعاية والحزبية ، وأصبح شغلهم الشاغل حصر هذا كلّه فى دمشق دون الأقطار العربية الأخرى . فعمل معاوية بدهائه على جمع القرشيين من أطراف البلاد العربيّة ودفعهم إلى الحجاز لعلهم يجتمعون فيه فلا يخرجون على أن يؤمّن لهم رزقهم ومتاعهم من بيت المال ، وبذلك حبست الطبقة الأرستقراطية من الحجازيين داخل حدود الحجاز ، وأصبحت تعيش فى رخاء ويسر ، لا همّ لها من أمر الحكم ولا شأن لها فى الإدارة ، وإنما تستطيع أن تنصرف إلى نفسها وشئونها الداخلية ، وتستطيع أن تعقد مجالس الطرب والسرور تقول من غير رقيب وتنشد ما تريد وتتغنى كما تريد بهوى النفس ولذة العين .

وأصبحت مكة والمدينة والطائف فى غنى وبطالة وفراغ ، تلهو حين تريد وتعبث كما تريد ، فلا تقصر اللّهو على زمان أو مكان ، وغدت هذه الربوع المقدسة مواطن الهوى والجمال ومدارس الغزل والحب . واتسع اللهو فى البوادى وفى المدن ، فنشأ الغزل فى كل مكان واستوى فى قوله أهل البادية والحضر ، فكان من اتساعه مدارس ثلاث :

الأولى المدرسة البدويّة ، وهى تعتمد فى الغالب على الوفاء واليأس والأسى فى الحب ، والثانية المدرسة الحضرية ، وهى تعتمد على الثروة والتنقل والظفر

فى غالب الأحيان ، والثالثة المدرسة الصناعية ، وهى لم تؤت حظ الحبّ العميق ولكنها قلّدت أرباب المدرستين وأخذت منهما فنشأ غزل يصدر عن الشفتين لا عن القلب .

والذين بحثوا أمر الغزل وقسموه إلى هذه الأقسام نظروا فيما وصل إليهم من شعر وقصص وسير وأساطير ، عن سبيل كتاب الأغانى وغيره ، فقبلوها على أنها وثائق ثابتة وأحاديث صادقة وانتقلوا منها إلى تحليل الشعراء ونتاجهم . فاعتمدوا فى تسمية الغزل العذرى على نقل ما إليهم من فشل الشعراء البادين فى أمانيهم ويأسهم فى حبهم ، فعاشوا يسعون وراء المرأة من غير نوال وينشدونها فلا يحصلون منها إلاّ على شبح الزيارة وبعض الحديث ، لأنها فى حوزة غيرهم وهم عنها مبعدون .

واعتمدوا فى تسمية الغزلين الإباحيّين فى الحضر على هذا الظفر الذى يصيبه الشعراء بمن يريدون وتقلبهم فى مسالك الحب ومعارك العشق . وأما الغزل الصناعى فى رأيهم فهو هذا الشعر الذى خلّفه رجال شغلوا بكل شىء إلاّ بقلبهم وحبهم ولكنهم على ذلك قالوا شعراً فى الغزل قلّدوا فيه غيرهم من الغزلين .

وقد وجد الباحثون من النقاد فوق هذا وذاك أن العذريّين كانوا يصدرون فى شعرهم عن شكوى ووجد وحرارة وإيمان وتقوى وعفة ، وتعطش ووفاء ، وحبّ وهجران . ورأوا أن الإباحيّين يتخذون مواضيع الغزل عند النساء المتزوجات والحاجّات الشريفات والزائرات العابرات ، وأنهم يعلنون هذا الأمر على رءوس الملأ ويعلنون ما قد يقع بينهم وبينهن من غير رادع أو وازع سواء أكان ما قالوه صدقاً أم كذباً .

ولكننا حين نعرض لهذا الغزل كلّه سنجد شبهاً قوياً بين هذه المدارس فى التشهير والرغبة والأمنية ، سوى أن العذريين تمنّوا امرأة واحدة كما زعموا ، وأن الإباحيّين تمنّوا أكثر من واحدة .

والشعراء العذريون الذين تمنّوا امرأة واحدة واشتهروا بها ، سمّوها وجعلوها موضع حبهم وغزلهم ، وقصّوا من أمورهم معها ومن أوصافها ما نجده عند كل واحد منهم فى شبه غريب ؛ حتى لكأنّ سيرة كل من النساء تشبه سيرة زميلتها فى موقفها وأوصافها وخاتمتها . فهل كان هؤلاء الشعراء يقلّد بعضهم بعضاً ، كما يقلد الجاهلىّ أخاه فى فخره وغزله ، أم كان الرواة يختلقون هذه السير ويخترعونها فتضيق براعتهم وينحصر خيالهم فى هذه الصور الشعرية وهذه الأساطير المرويّة ؟ !

ومهما يكن من أمر فإننا وقعنا على شعر موروث نسب إلى شعراء بأسمائهم تغزلوا وقالوا فى المرأة ، وروت الأغانى قصائدهم ، وقال النقاد فى عفتهم وإباحيتهم ما قالوا فحكموا بالفجور على بعض ، وحكموا بالأخلاق الفاضلة على بعض ، وافترض أكثر النقاد وقوع هؤلاء الشعراء ، وبينوا أنسابهم ومواطن عيشهم ، وذكروا عشيقاتهم وما وقع لهم فى الحب العفيف وغير العفيف . فقد أصبح هذا كله من تراثنا الأدبىّ ووجب علينا أن نتناوله بالتحليل والتعليق.

وهذا الشعر منثور فى المصادر القديمة وأخصها الأغانى ، أعجب به الكتاب فتناقلوه لأنه قريب من الأسماع والقلوب ، فلا سبيل إلى إغفاله ، ولا سبيل كذلك إلى التحقيق العلمىّ فى تاريخ هؤلاء الشعراء وتاريخ هاته المعشوقات ، ولن نطمع فى أدبنا العربى بما طمع به الغربيون من رفع الأسماء المستعارة وكشف الستار عن المعشوقات فى آدابهم كما فعلوا فى سير جوليا لامارتين وعشيقات موسه وڤينى وڤيكتور هوغو وروسو وڤولتير وغوته وغيرهم .

وقد انتشر هذا الشعر الغزلى لأنه كان قريباً من الأصوات والألحان فصلح للغناء والطرب فتنقل فى دور اللهو وقصور الأمراء والأشراف وبلغ البيوت والخيم ، ومشى فى البادية والحضر ، ولم يقتصر على الحجاز وإنما انتقل إلى الشام ،

فذكر صاحب الأغانى أن المغنين فى المدينة ومكة سافروا إلى دمشق فغنوا الخلفاء قصائد الغزل هذه فأصبح الناس يتغنون بها وينشدونها ، حتى لقد أشبهت فى عصرنا أغانى الطرب . ولعلّ الشعراء حين رأوا هذا الرواج رققوا من ألفاظ الغزل واختاروا من قوافيه ما يصلح للغناء والطرب . بل لعل خلفاء بنى أمية شجعوا هذا الضرب من القول إنفاذاً لسياسة معاوية وانتصاراً لخطة الأمويين بعده فى إبعاد الحجاز وأهله عن ميدان السياسة .

وقد أتانا أن هذا الغزل راج فى الرجال والنساء ، على اختلاف مراتبهم من الوقار والخفة والدين والطيش ، فأعجب به الفقهاء ورجال الدين كما أعجبت به العامة ، وأعجبت به النساء الحرائر والشريفات المثريات كما أعجبت به الإماء والقيان . وكم من امرأة مخدرة احتالت وعملت ليروج صيتها ويشتهر جمالها وتذكر فى المجالس . وكم من قصة فى الأغانى وغير الأغانى عن هاته النسوة متزوجات وغير متزوجات سعين فى طلب الشعراء والاجتماع إليهم ، يعلنّ رضاهن عن هذا الشعر ويبدين رغبتهن فى مثله . وكم من أخبار راجت فى مواسم الحج وانتقلت إلى الأقطار عن أمور العشاق وأساطير الحب والهوى ، وبالغ الناس فى نقلها على عادتهم فوصلت إلينا فى شكل مخيف يصوّر الأخلاق وقد تدهورت والمثل العليا وقد تلاشت ، حتى لقد نسج الكتاب المعاصرون من لحمتها برداً فى التهويل والإسراف من غير أن يعرضوا لأصحاب هذه الروايات وناقليها بالتجريح والشكّ ، ومناقشة الأغراض التى دفعت الأصبهانى وغيره على روايتها وجمعها ، ومن غير أن يعرضوا لأمر الدس على قريش وبنى أمية وتصوير النساء فى رغبة مزرية وشهوة مستيقظة لا تبالى بشىء ولا تعبأ بأمر .

ومما لا نكران فيه أن شعر الغزل يروج أبداً فى كل عصر ومصر ، يستمع إليه الناس على اختلاف طبقاتهم بل لعلهم لا يستمعون إلا إليه فى مجالسهم الخاصة والعامة . فالمرء يفخر فى انتصار الشباب وفوز القلب إذا ما خلا إلى

نفسه أو صفيّه أو خلصائه ، ويزداد فخره كلما تقدمت به السن فبكى الشباب وما كان فى الشباب ، ولعله كان آخر الناس فى حلبة الحب يظلع ويغطيه غبار المتسابقين فيكسوه بثوب الفشل والخذلان ، ولا يقف هذا الفخر عند الشباب الجميل بل يتعداه إلى القبيح من الرجال يدعوه إليه مركب النقص — كما يقول علماء النفس — فإذا أتيح لك أن تجتمع إليه روى عجباً وقص طرباً من أخبار يتخيلها ولعله كان يتمناها فى شبابه بله شيخوخته .

كذلك الناس فى قديمهم وحديثهم على اختلاف العصور ، وكذلك كان شعراء بنى أميّة وفيهم من لا يسمو إلى جمال أو جلال ، وفيهم من جرفته منازع الحياة وشغله النضال فى سبيلها ، فقد طرقوا هذا الباب وافتتحوا قصائدهم بذكر الحب كأنّ صدورهم تحبّ أن تستقبل أنباءه أول ما تستقبل وتستهل به القول أول ما تستهل ، فزادوا فى ذلك على شغف الشعراء الجاهليين بالغزل وعكفوا عليه أكثر من أولئك ؛ لذلك كان غزل صادق وغزل صناعى كاذب ولعلنا نتبين بعض ذلك فيما نعرض له من غزل العصر الأموىّ فى الحجاز وفى الشام والعراق .

فى الحجاز :

قلنا إن المدينة ومكة والطائف وما جاورها من الحواضر والبوادى كانت تردّد همسات الحب فى الشعر وتتغنى بقصائده ومقطعاته ، وقلنا إن شعر البادية كان ينشد فى الحاضرة ويطرب له الناس فيها ، فلنبدأ بهذا الشعر لعلنا نتبين مدرسة هؤلاء البادين الذين تفرغوا للحب واكتفوا به غذاء لأرواحهم لا يعدله عندهم غذاء ، فقد انصرفوا عن السياسة واستسلموا للدين الجديد ، وعاشوا فى هذه الطبيعة التى تنحصر بين السماء والصحراء فى حياة متشابهة مملّة يضطر فيها

المرء إلى أن يتحدث وإلى أن يقضى الليل فى السمر ، وإلى أن يخترع القصص أو ينقل ما سمع من أخبار فى يومه ، فليس لديه حرب ولا نضال ولا سبى ولا نزاع ، وإنما فى جعبته هذه الأخبار الجسيمة وفيها إقبال شاب على فتاة وتغزل شاعر بحبيبة ورواج هذا الشعر على ألسنة القبائل . فما هو إلاّ أن يغضب أهل الفتاة وينتصر لهذا الغضب حماة الأخلاق والدين ويقفوا حائلاً دون هذا اللقاء ويعملوا على منع الفتاة عن الفتى . وهنا يشتد القول ويهيج غرام الشاعر ويضطرم قلبه ، فتنهال القصائد والمقطعات ويولد الشاعر المحب وتولد العشيقة المحبوبة .

ولعل هذه القصص والأشعار مخترعة كما بيّنا وبين الجاحظ[١] منذ القرن الثانى للهجرة ، ولعلها غير مخترعة فهى قد بلغت مسامع المؤرخين والأدباء القدماء فسجلوها وحق لنا أن نبسط فيها القول وأن نتناولها بالعرض . وهى عجيبة لا تكاد تخرج عن هيام الفتى بالفتاة ، ولا تزيد على الحرمان وشدّة الوجد وقسوة البعد والموت فى الحبّ ، حتى لكأنّها سيرة واحدة تتكرر مع شىء من الاختلاف ، فهى مدرسة واحدة وطريقة واحدة ، إنها مدرسة جميل بثينة ومجنون ليلى وقيس لبنى وكثير عزة .

المدرسة البدوية :

وقبل أن نعرض لهؤلاء الشعراء ومدرستهم نحب أن نبسط بين يديهم صورة لشاعر أحبّ فأخلص الحبّ ، وعشق فكان عذريًّا ، واختصّ هو كذلك بمعشوقة واحدة هى « أُميمة » ، وأظن أنك عرفت أنّه عبد الله ابن الدمينة وهو يمثل الغزل البدوىّ فى العصر الأموىّ ، ولكنه لم يبالغ كما بالغت

---

(١) قال الجاحظ : « لم يترك الناس شعراً فيه ليلى إلا نسبوه إلى المجنون ولا شعراً فيه بثينة إلا نسبوه إلى جميل ولا شعراً فيه لبنى حتى أضافوه إلى قيس بن ذريح » .

مدرسة جميل بثينة ولم يسرف فى هواه ، فلم يهم فى الأودية ولم يتبع الظباء ولكنه تغزل وصبر حتى بلغ الأمنية ، وتزوج من حبيبته « أميمة» وهو فى هذا يختلف عن مدرسة جميل ، ولكنه يتفق مع هذه المدرسة فى أنه خصّ حياته وشعره بقول الغزل والنسيب ، بل جعل ديوانه كله فى الغزل ، ويدور حول هذا الديوان شك واحد هو أن الرواة جمعوا فيه كلّ ما قيل فى أميمة من غزل ونسيب ، فنحن لا ندرى مبلغ الصحة فى نسبته إلى ابن الدمينة أو نسبة بعضه إليه ، وكل الديوان من السهل اللطيف ومن رقيق الغزل .

قال من قصيدة فى ديوانه :

ألا يا صبا نجد متى هجت من نجد ... لقد زادنى مسراك وجداً على وجد
أإن هتفت ورقاء فى رونق الضحى ... على فنن غض النبات من الرنـــد
بكيت كما يبكى الوليـــد صبابـــة ... وحزناً وأبديت الذى لم تكن تبدى
وقـــد زعمـــوا أن المحب إذا دنا ... يملّ وأن البعد يشفى من الوجد
بكلٍّ تداوينا فلم يشف ما بنا ... على أن قرب الدار خير من البعد
على أن قرب الـــدار ليس بنافـــع ... إذا كان من تهواه ليس بذى ودّ

فالصّبا تحمل إليه الذكرى وتهيجه ، والورقاء على غض النبات تبكيه ، والناس يزعمون أن المحب إذا دنا يملّ وأن البعد يشفى من الوجد ، فتداوى بالبعد والقرب ولكن ذلك لم يجده نفعاً لأن المحب غير ودود . ولعلّ هذه الأبيات من أرق ما سمعنا فى هذا العصر ، فهى أسى وحزن ودموع ، وهى ذكرى خالصة وحث على الوفاء وليس فيها وصف للمحبوبة أو لقاء معها .

وقد استحسن القدماء والمغنون قوله فى أُميمة ومطلعها :

قفى يا أُميم القلب نقضى لبانـــة ... ونشك الهوى ثم افعلى ما بدا لكِ

ويقول فيها :

هويتُ ولم تهوى وكنت ضعيفةً ... فهذا بلاء قد بليت بذلكِ

وأذهب غضباناً وأرجع راضياً   وأقسم ما أرضيتني بين ذلكِ
يقولون : ذرها واعتزلها وإنما   تساوى ذهاب النفس عند اعتزالك
أرى الناس يرجون الربيع وإنما   ربيعى الذى أرجو زمان نوالك
أبينى أفى يمنى يديك جعلتنى   فأفرح أم صيرتنى بشمالك ؟
لئن ساءنى أن نلتنى بمساءة   فقد سرنى أنى خطرت ببالكِ

فالعاشق المولّه يذهب غضبان ويرجع راضياً والمعشوقة لا تصنع ما يرضيه وما يشفى ألم نفسه ، والناس كلهم على أن يهجرها ولكن كيف يفعل وهى النفس والحياة ، وهو سعيد بأنها تملك قياده وأنها تفكر فيه . وهذا لون جديد من الغزل ابتعد عن الأوصاف الماديّة الحسّية فشبهها بالنفس والربيع ورضى منها بأن تملكه بيمين أو شمال على أن يكون عندها مقرباً وإليها محبّباً .

وشبيه بهذه الرقة قوله :

فوالله ما أدرى أكل ذوى الهوى   على ما بنا أم نحن مبتليانِ
وإنا لمشهوران مؤتمر بنا   بلقيان من لا نشتهى ظفرانِ
وإنّا لمن حيّين شتى وإننا   على ذاك ما عشنا لملتقيانِ

أو قوله فيها :

خليلى زورا بى أُميمة فاجلوا   بها بصرى أو غمرة عن فؤاديا
فإن لا تزورا بى أميمة تعلما   غداة غد أن لا أخا لكما بيا !

وهنا يتساءل العاشق أكل المحبين يتشابهون أم ابتلى الله عبد الله وأُميمة بهذا العذاب ، فهما لا يلتقيان . ويسأل بعد ذلك رفيقيه أن يجلوا بصره فيزورا أُميمة عنه وإلا فهو منذ الغداة فى الأموات . وهذا نهاية فى العشق والهيام والصبابة والوجد لم يشف من خلاله جسد ولم تظهر فيه أُمنية حسّية أو وصف مادّى .

ويطول بنا المقام إذا ما أردنا أن نورد هنا أبيات الغزل فكلّ ديوانه

مستحسن مختار يجدر نقله والتعليق عليه ، ولكننا عرضنا لابن الدمينة لكى نصل إلى الحكم بأن فى العصر الأموىّ شعراء تفرّدوا فى الغزل بواحدة وأخلصوا لها كما تفرّدت مدرسة جميل ، ولكنهم لم يجنّوا ولم يهيموا على وجوههم ولم تسر بين القبائل سيرة عشقهم وهواهم على شكل مفجع قاس كما وقع لأصحاب جميل . فكيف كانت هذه المدرسة ؟

ولد جميل بن معمر فى قبيلة قضاعة وكانت تسكن الحجاز ، ونشأ فى أسرة رفيعة القدر عظيمة المال واسعة الثراء ، وقد جمع الشاب إلى هذا الغنى جمال الخلقة فعاش مفتوناً بنفسه مزهوًّا بقومه حتى جمعته الظروف ببثينة وهى قريبة له يلتقى نسباهما فى أحد الجدود . وكانت هذه الفتاة تعيش على شىء من رقة الحال وقلة المال ، وهى فيما وصف الواصفون على قدر من الجمال .

وتروى كتب الأدب أن اجتماعهما أول مرة كان على خلاف وَحَّدَ بينهما إلى الأبد ، فالرواة والشاعر نفسه متفقون على أنه تبادل معها السباب وانتهى السباب إلى لقاء فحبّ فوجد . وذاع هذا الوجد على لسان جميل وعرفت أسرة الفتاة ما كان من شعره فى بثينة فمنعوها منه ، وزاد المنع فى ضرام الحب ، بل لقد انتهى به إلى الوله حتى قر رأيهم على زواجها من رجل دميم الخلقة قليل الجاه والنسب ، ولم ينفع فى جميل لوم الأهل والصحاب فلبث يجتمع بها وتجتمع به على رغم الزواج .

وإذا شئت أن تعرف مبلغ العشق فاسمع قوله :

حلفت يميناً يا بثينة صادقًا ... فإن كنتُ فيها كاذباً فعميتُ
إذا كان جلد غير جلدك مسّنى ... وباشرنى دون الشعار شريتُ
ولو أن راقى الموت يرقى جنازتى ... بمنطقهـــا فى الناطقين حييتُ

فهو يقسم على الود ويحلف على العهد ويتمنى الموت للكاذب أنه لا يريد غيرها ولا يخونها ؛ ولو أنه رقى بصوتها ميتاً لعاش . وهذا أثرها فى نفسه ،

وهذا حبّه الصادق البرىء يصفه بقوله :

لا والذى تسجد الجباه له ... مالى بما دون ثوبها خبرُ
ولا بفيها ولا هممت به ... ما كان إلا الحديث والنظر

ويقول كذلك :

خليلان لم يقربا ريبة ... ولم يستخفا إلى منكر

فهو يحبها حبًّا عفيفاً لا يقرب ريبة ولا يستخف إلى منكر ، ولا يهم بفيها ، ولكنه بعد ذلك يقول :

ألم تعلمى يا عذبة الريق أننى ... أظلّ إذا لم أسق ريقك صادياً

فهو يتمنى هذا الرّيق ويلبث على عطشه حتّى ترويه بقبلة .

وقد اجتمع على جميل ثقافة الشعر ولهيب الحب فجعل منه شاعراً غزلا على طراز رفيع . فقد نقل النقاد أنه كان راوية هدبة بن خشرم وكان شاعراً وراوية للحطيئة المشهور ، وأنه أخذ يحفظ هذا الشعر الفخم ويقلّده فى أسلوبه حتى نبع من قلبه فيض العشق فساقه إلى غزل فاق فيه شعراء عصره . وقد وازن النقاد بينه وبين عمر بن أبى ربيعة وقالوا إنهما اجتمعا وتناظرا فكانت النتيجة فحولة فى جميل وجزالة فى صنعته الشعرية لم يرها النقاد عند عمر ، ورأوا فى عمر بساطة وسهولة ليست عند جميل ؛ ذلك لأن جميلاً بدوىّ وعمر حضرى . وغريب من بدوىّ أن يرق فى وصف ما يلقاه حتّى يقول :

يكاد فضيض الماء يخدش جلدها ... إذا اغتسلت بالماء من رقة الجلدِ
وإنى لمشتاق إلى ريح جيبها ... كما اشتاق إدريس إلى جنة الخلد
لقد لامنى فيها أخ ذو قرابة ... حبيب إليه فى ملامته رشدى
وقال : أفق حتى متى أنت نائم ... بثينة فيها قد تعيد وقد تبدى
فقلتُ له : فيها قضى الله ما ترى ... علىّ وهل فيما قضى الله من ردّ !

وهنا يصف رقة الجلد وطيب الرائحة ولوم الأصحاب وينتهى إلى قضاء الله وقدره . ثم يقول فيها :

هى البدر حسناً والنساء كواكب ... وشتان ما بين الكواكب والبدرِ
لقد فضلت حسناً على الناس مثلما ... على ألف شهر فضّلت ليلة القدرِ
عليها سلام الله من ذى صبابة ... وصبّ معنّى بالوساوس والفكرِ
أيبكى حمام الأيك من فقد إلفه ... وأصبر؟ ما لى عن بثينة من صبر !
ومالى لا أبكى وفى الأيك نائح ... وقد فارقتنى شختة الكشح والخصر[1]
يقولون : مسحور يجنّ بذكرها ... وأقسم ما بى من جنون ولا سحر

وهذا غزل جديد فى بعض صوره ، فهو يجعلها بدراً بين الكواكب وفضّلها على الناس كتفضيل ليلة القدر على ألف شهر وبعث إليها سلام الله . ثم ذكر الحمام النائح لفقد أليفه ، وعاد إلى صور الجاهلية من دقة الجسد والخصْر وإصابة الجنون والسحر . وهذا كما قلنا يجمع ثقافة الجاهلية وثقافة القرآن والإسلام ، فقد أخذ عن النابغة قوله « كأنك شمس والملوك كواكب » وأخذ عن القرآن : « ليلة القدر خير من ألف شهر » وأخذ سائر المعانى من بكاء الحمام والسحر والرقى والجنون عن الجاهليين السابقين :

ويقول فى قصيدة أخرى :

أرى كل معشوقين غيرى وغيرها ... يلذان فى الدنيا ويغتبطانِ
وأمشى وتمشى فى البلاد كأننا ... أسيران للأعداء مرتهنانِ
أصلى فأبكى فى الصلاة لذكرها ... لى الويل مما يكتب الملكانِ
ضمنتُ لها ألا أهيم بغيرها ... وقد وثقت منى بغير ضمانِ
ألا يا عباد الله قوموا لتسمعوا ... خصومة معشوقين يختصمانِ
وفى كل عام يستجدّان مرة ... عتاباً وهجراً ثم يصطلحانِ

---

(١) شختة . دقيقة — الكشح : ما بين السرة ووسط الظهر .

يعيشان فى الدنيــا غريبين أينما أقامــا وفى الأعوام يلتقيــان

وجميل فى هواه شبيه بالعشاق قبله وبعده حين يظنون أنهم وحدهم المعذبون فى الأرض وأن غيرهم فى هواه سعيد ، حتى ليخيل إليه أنه وبثينة مقيّدان يصبحان أسيرين ويمسيان مرتهنين للعادات والتقاليد ، يفرق بينهما الناس وتفصل بينهما الحياة ، وهو على هواها مقيم لا يصل بينه وبينها إلاّ العتاب والخصام والهجر ، فما يصطلحان إلا ليختصما ، فهما غريبان فى الدنيا لأنهما أحبا وأخلصا . وهذا شعر رقيق تأثر بالإسلام حتى ليذكرها فى صلاته ويخاف الملكين ، ويستنجد بالناس عباد الله . ونحن نظن أن هذا الشعر حبيب إلى القلب قريب إلى الأذن ، فكأنه من شدة البساطة نثر تحدّه القافية يسيل فى كل أذن ويستلطفه كلّ سمع .

وقد خطّ جميل فى العصر الأموى خطة الحزن فى غزله كما خطّها من قبله كثير من شعراء الجاهلية فأصبح فى شعرنا الغزلى كلّه لون من اليأس والبؤس يسيران مع الأجيال ، فيتنقل العاشق من هجر إلى هجر ومن حرمان إلى حرمان ، يقضى نُهُره قلقًا ولياليه أرقاً وهو مع ذلك على الوفاء والعهد ، فيقول :

ويكون يوم لا أرى لك مرسلاً أو نلتقى فيــه علىّ كأشهر
يا ليتنى ألقى المنيــة بغتــة إن كان يوم لقائكم لم يقدرِ
أو أستطيع تجلّداً عن ذكركم فيفيق بعض صبابتى وتفــكرى
لو قد تجن كما أجن من الهوى لعذرت أو لظلمت إن لم تعــذر
والله ما للقلب من علم بهــا غير الظنون وغير قول المخبر
لا تحسبى أنى هجرتك طائعــا حدثٌ لعمرك رائع أن تهجرى
فلتبكينى الباكيات وإن أبــح يوماً بسرّك معلناً لم أعــذر
يهواك ما عشت الفؤاد فإن أمت يتبع صداى صداك بين الأقبر

فهو يجد الحياة فى قربها والممات فى بعدها ؛ بل هو يعلن عجزه عن الصبر وضجره من الهجر ويصارحها بأنه مضطر إلى الانقطاع عنها غير راض به ، وأنه حافظ للسرّ ما عاش فإذا مات دفن سرّه معه .

وهى أبيات رقيقة كذلك فيها هوى قاتل وصبر زائل وجنون وموت ، وهذا أقصى ما وصل إليه العشق فى صدر العصر الأموىّ ، ولم يبلغه الجاهليون ، فقد كان الغزل عندهم قصير النفس محدود الأوصاف . وإذا كان امرؤ القيس قد بكى قليلاً فإن الشعراء بعده سبحوا فى دموعهم — إذا صح التعبير — ولعلّها حياة العرب ضيق وجفاف ورقباء وقرب الدار من الدار وكثرة الحساد ، وقد وقع مثله فى الآداب الغربية ، حين كانوا يعيشون مثل ما عاش العرب . ولكنهم حين اتسعت الحواضر وغفلت الأعين أبدعوا واخترعوا ، ولم يتح مثل ذلك لزملائهم من الغزلين باللغة العربية . ولعلك لو قرأت شعر التروبادور فى فرنسا وشعراء الأرياف فى أوربة لآمنت معنا بأن جميلاً لم يبالغ ولم يسرف .

ولم يقع هذا الوفاء من جميل لقلة النساء وضعف إلمامهن به ، فقد عرض عليه أكثر من مرة أن ينسى وأن يحبّ من جديد ، ولكن الرّواة شاءوا أن يكون عفيفاً وأن يختلف فى ذلك عن عمر بن أبى ربيعة . فلقد رووا أن امرأة ثانية عرضت عليه أن تقع من قلبه موقع بثينة فأنشد يقول :

أبثين إنك قد ملكت فأسجحى ... وخذى بحظك من كريم واصل
فلرب عارضة علينـــا وصلهـــا ... بالجـــد تخلطه بقـــول الهازل
فأجبتها فى القـــول بعد تســـتر : ... حبى بثينة عن وصالك شاغلى
لو كان فى صدرى كقدر قلامـــة ... فضلاً وصلتك أو أتتك رسائلى
ويقلن إنكَ قد رضيت بباطل ... منها فهل لك فى اجتناب الباطـــل
ولباطلٌ ممـــن أحبّ حديثـــه ... أشهى إلىّ من البغيض الباذل
ليزلن عنك هـــواى ثم يصلنى ... وإذا هويت فمـــا هواى بزائل

ورسم لنا حديث العواذل وما يقمن به من سعاية ووشاية للتفريق بين العاشقين ، وسجّل لنا جوابه وعنفه ووفاءه فى رقة وصدق ليثبت لها خلوده فى الحب ورضاه بكل ما تفعل . ثم يصور لنا موقفها منه فيقول :

وأطعتِ فىّ عواذلا فهجـرتنى وعصيتُ فيكِ وقد جهدْتُ عواذلى

وهذه موازنة لطيفة بين موقف العاشق وموقف المعشوقة تدل على إيثار وتضحية يمثلهما شعر جميل فى هذا الموقع فيغيظ أعداءها وأعداءه ، ويصف هذا الغيظ كأجمل ما يصفه شاعر لعصره :

يعضضن من غيظ علىّ أناملاً ووددتُ لو يعضضن صمّ جنادلِ

ويقلن إنك يا بثين بخيلة نفسى فداؤك من ضنين باخلِ

ولعلنا أصبنا بعد هذا الذى رويناه من شعر جميل ما نريده من صور الغزل الأموىّ فى الحجاز ، فهو يصف العاشق ، وما يقع له من هجر معشوقته ، وما يضطرب فيه من أسى ويأس ، وما يبلغه من وشايات ، وما يعترض سبيله من حواجز وموانع فى الوصول إليها ، وما يبذله من عهود فى الوفاءِ والإخلاص ، وما يعيش فيه من أمل اللقاء من غير أن يعرض لرسم الجسد بصورة مادية حسّية مفصّلة كما رأينا عند الشعراء الجاهليين .

ولقيس بن ذريح قصة شبيهة بقصص هذه المدرسة ، فقد رأى لُبْنى فى بعض أسفاره فأحبها وأرادها زوجة له ، فمنعه أبوه من ذلك خوفاً على ثروته أن تنتقل إلى قوْم غير قومه ، فسعى قيس عند الحسين بن علىّ — وكان أخاه فى الرضاعة — ورجاه أن يتوسط بين أبيه وقوم لبنى ففعل الحسين وتمّ الزواج ، وأصبح قيس ولبنى سعيدين هانئين . ولكن أمّ قيس نغّصت هذه الهناءة فسعت عند ابنها فى الطلاق لغيرة أصيلة فى نفوس كثير من الأمهات ، وحار الفتى فى إرضاء أبويه أو إغضاب زوجته ، ونزل أخيراً عند إرادتهما بعد الذى رأى من تعاسة أبويه بهذا الزواج وشقائهما برؤية هذه الزوجة .

ولم يكد قيس يطلّق لبنى حتى فقد هناءته وقراره ، فأصابه ذهول فوجد صارخ ، وراح يبكى ويتحسّر ، حتى مرض وأشرفت به العلة على الموت ، فلما رأى أبواه ذلك أغروا به صحابه وفتيات حيّه أن يسعوا إلى تسليته لعله يسلو فلم ينفع معه دواء أو حيلة . وقال يصف حاله :

لقد خفتُ أن لا تقنع النفس بعدها بشيء من الدنيا وإن كان مقنعا
وأزجر عنها النفس إذ حيل دونها وتأبى عليها النفس إلا تطلّعا

وزاد مرضه وألمه حين وقعت الواقعة وتزوجت لبنى غيره ففقد بذلك عقله وصبره ، وراح يتلمّس موضع خبائها ، ويمرّغ خدّه على ترابها ويبكى وهو ينشد :

إلى الله أشكو فقد لبنى كما شكا إلى الله فقد الوالدين يتيمُ
يتيم جفاه الأقربون فجسمه نحيلٌ وعهد الوالدين قديمُ
بكت دارهم من نأيهم فتهلّلت دموعى فأىّ الجازعين ألومُ
فإنى وإن أجمعتُ عنك تجلداً على العهد فيما بيننا لمقيمُ
وإن زماناً شتّت الشمل بيننا وبينكم فيه العدا لمشومُ
أفى الحقّ هذا أن قلبك فارغٌ صحيح وقلبى فى هواك سقيمُ !

وقيس يشتد فى الشقاء لفراقها حتى ليحسّ باليتم فهى عنده أبوه وأمه ، وقد نحل جسمه وبكت داره وانهملت دموعه ، وهو ما يزال على العهد مقيم يلعن الزمان المشتّ المشئوم ولو أنه يتساءل عن قلبها وهواها وإن كانا يشبهان قلبه وهواه ! . . وهذه معانٍ فى الشكوى والبكاء تشبه ما أصاب جميلا عند بعد بثينة .

وظل قيس يرسل الشكوى ويظهر البلوى وينادى ويسترحم حتى بلغ به اليأس والهوى مبلغا يصدّع منه القلب ويسيل الدمع فيقول :

أقضّى نهـاری بالحديث وبالمنی ويجمعنی والهمّ بالليل جامـعُ
نهاری نهار الناس حتی إذا بدا لی اللّيل هـزّتنی إليك المضاجعُ
لقد رسخت فی القلب منك مودّة كما رسخت فی الراحتين الأصابعُ
أحال علیّ الهمّ من كل جانب ودامت فلم تبرح علیّ الفواجـعُ
ألا إنّما أبكی لما هـو واقـعٌ فهل جزعی من وشك ذلك نافـعُ
وقد كنت أبكی والنـوی مطمئنة بنا وبكم من علم ما البين صانـعُ
وأهجركم هجر البغيض وحبـكم علی كبدی منه شئون صوادعُ

وهو فی هذا الشعر كما فی غيره يرسم همّه وأرقه وذكراه وعمق مودته وعظيم فاجعته وطويل بكاه ، ويرثی لنفسه وهو يهجرها وقلبه ينفطر أسی وكبده تتصدع لفراقها وذلك رقيق يغصّ بالتفجع والتوجع والشكوی والتلهف شبيه بشعر قيس فی لبنی أو المجنون فی ليلی ، ولو تركت القصيدة من غير نسبة إلی قائلها ما نری ألمك تلوذ بغير واحد من أصحاب هذه المدرسة ، وربما عمّی عليك الأمر فنسبتها إلی أحدهم ثم رأيت أنها ألصق بالثانی ، وذلك لقرب الشعر عند هؤلاء فی الغزل بعضه من بعض ، حتی لا يكاد يتميز أحدهم فيه إلاّ حين يذكر المرأة المعنيّة باسمها فيعرف صاحبها بها . بل لعله لضيق الخيال عند صانع هذا الشعر وهذه القصص كما قلنا صنع القوالب متشابهة ، ولكن ذلك كلّه لا يغير من رأينا فی أن هذا الشعر قد قيل وفی أنه يمثل الغزل أجمل تمثيل ، فهو عدتنا فی البرهان علی رقة الشعر فی العصر الأمویّ وفيض الشعور والعواطف فی قائليه .

وأما قيس بن الملوّح ، فهو من بنی عامر ، وقد نسجت حوله كذلك قصة زائفة فی كتب الأدب تعدّ فی جملة أساطير الغزل لهذا العصر الأمویّ . وهی تتلخص فی أن قيساً وليلی كانا طفلين يرعيان البهم فلما كبرا امتنعت عليه ليلی لتشبيبه بها كما حدث لجميل ، فزاد هذا فی حبه وأولع الأهل فی التفريق بينهما علی عادة العرب ، فأصاب قيساً وله وهيام فجنون ، وراح يضرب فی أنحاء

البادية بحثاً عن ليلاه ، وسعياً وراءها حتّى اشتهر اسمها وخاف أهلها مغبة الفضيحة فشكوه إلى السلطان فأهدر دمه . والمجنون لا يبالى بذلك سادر فى غوايته وحبه حتّى قضى نحبه فى الرمال .

ومن شعره فى ليلى قوله :

وإنى لأخشى أن أموت فجاءة … وفى النفس حاجات إليك كما هيا
وإنى لينسيــنى لقاؤك كلمــا … لقيتك يوماً أن أبثك ما بيــا
وقالوا به داء عيــاء أصابــه … وقد علمت نفسى مكان دوائيا

وهو تصوير رائع لحال المحبّ حين ينقضى اللّقاء وقد ظن أنه يستطيع أن يقول لمحبوبته شيئاً وقد نسى أن يقول ، وهو مريض يعرف مكان الداء خائف من أن يبوح لها بسر حبّه . ويقول فيها كذلك :

أعدّ الليــالى ليلة بعــد ليلة … وقد عشتُ دهــراً لا أعدّ اللياليا
أرانى إذا صليت يممت نحوهــا … بوجهى وإن كان المصلّى ورائيا
وما بى إشراك ولــكنّ حبهــا … كعدد الشّجا أعيا الطبيب المداويا
أحب من الأسماء ما وافــق اسمها … وأشبهه أو كان منــه مدانيــا
هى السحر إلا أن للسحــر رقية … وأنىَ لا ألقى لها الدهــر راقيا

وهذا واقع معروف فى العشاق يرسمه الشاعر رسماً صميماً فى انتظار اللقاء وعدّ الليالى والاستئناس بالأسماء القريبة من اسمها . ويبالغ فى وصف عفته فيقول :

تكاد بلاد الله يا أم مــالك … بما رحبت يومــاً علىّ تضيــقُ
تتوق إليك النفس ثم أردّهــا … حياء ومثلى بالحياء خليــقُ
ولو تعلمين الغيب أيقنت أننى … حبيبٌ وأنى للحبيب مشــوقُ
أروم سلوّ النفس عنك وما لها … إلى أحد إلاّ إليك طريــقُ

فهو يضرب فى البلاد حتّى لتضيق به ويسعى وراءها ويمنعه الحياء من اللقاء

ويتمنى النسيان ، ولكن نفسه تأبى إلا أن تهيم بها وتشتاقها . وهذا مثل من الشوق عنيف ، ويقول فيها كذلك :

ولم أر ليـــلى بعد موقف ساعة ... ببطن منًى ترمى جمار المحصَّبِ
ويبدى الحصى منها إذا قذفت به ... من البرد أطراف البنـــان المخضَّبِ
فأصبحتُ من ليلى الغــداة كناظر ... مع الصبح فى أعقاب نجم مغرّبِ
ألا إنمـــا غادرت يا أم مـــالك ... صدًى أينما تذهب به الريح يذهبِ

وهو يلحق بها إلى الحج فيراها تلقى الجمار بمنى فتظهر أطراف البنان المخضب ، ولكنه لا يجرؤ على الحديث واللقاء فيودّعها غداة ذلك اليوم كوداع النجم المغرّب ، وقد خلفت صدًى يحمله الريح إليه فى كل مهبّ . وهذا شعر قريب من شعر جميل وشعر ابن ذريح فى أساليبه ومعانيه لا يكاد يختلف عنهما فى شىء . وهو يشبههما كذلك فى الحديث عن الوشاة والنمائم حين يقول :

وخبّرك الواشون أن لن أحبكم ... بلى وستور الله ذات المحـــارم
أصدّ وما الصدّ الذى تعلمينـــه ... شفاء لنا إلا اجتراع العلاقم
حياء وبقيـــا أن تشيـــع نميمة ... بنا وبكم ، أفّ لأهـــل النمائم

ونرى أن طابع الشعر عند قيس هنا هو الخجل والحياء وخوف الافتضاح ؛ ومع ذلك نظم فى ليلى أكثر مما نظم غيره ، وسار شعره وأحبه الناس لرقته وعفته جميعاً ، ونحن لا نجد له فضلاً من رقة أو عمقا فى الوصف . وقد ألصق الناس به كل شعر فيه ذكر ليلى وهيام وجنون وذهاب مع الهوى ، فارجع إلى الأغانى تجد منه مجموعة غريبة عجيبة لا تعدو فى صورها ما روينا وما نقلنا .

وكثيّر بن عبد الرحمن شاعر حجازى كذلك من شعراء الدولة الأموية ، ويكنى بأبى صخر ، وقد اشتهر كذلك بامرأة واحدة حتى أضيف اسمه إليها فسمّى كثيّر عزة كما اشتهر أصحابه : جميل ببثينة والمجنون بليلى وقيس بلبنى . وأكثر شعره فى التشبيب بها . وقد ذكر النقاد أنه أحد عشاق العرب وأن شعره يسبق السحر ويغلب الشعر — كما قال فيه عبد الملك بن مروان — وقد كان شيعيًّا غالياً فى التشيع . ولكن أكثر النقاد على أن شعره متكلّف فى الحبّ ، فهو

أدخل عندهم فى مدرسة الغزل الصناعى ، ولكننا لم نر رأيهم فى ذلك ، وقد وازنا بين شعره وشعرهم فما وقعنا على اختلاف فى الأساليب والأداء ، ووجدنا أن قصته شبيهة بقصص الغزليّين العذريين ، وحين نبسط القصة والأشعار تدرك السبب الذى دفعنا إلى جعله فى المدرسة البدويّة لا فى مدرسة جميل .

وقصة حبّه تتلخص فى أنه مر بنسوة وهو يرعى الغنم فأرسلن إليه عزة وهى صغيرة تسأله عن بيع بنسيئة فأعطاها كبشاً وأعجبته ، فلما رجعت إليه امرأة بدراهمه سأل عن الصبية التى أخذت منه الكبش وألحّ فى ذلك حتى برزت إليه كارهة ، ثم أحبته أشدّ من حبه لها ، وأحبها حتى الجنون .

وكان كثير دميماً بشعاً مضحكاً لمن يراه ، وكان قصيراً ضعيف العقل يتخذه الناس سخرية وهزؤا ، وهو لا يحس ولا يدرى ، فلم يكن ذكى القلب صافى الطبع رقيق الحس ، ومع ذلك وفّق فى شعره واعترف له النقاد بذلك حتى قرنه أكثرهم بقيس لبنى وفضلوه على شعراء المدرسة البدويّة والحضريّة معاً . وكان الرجل يتردد بين البادية والحاضرة ويتصل بقصر دمشق يمدح الأمويين ويتملّقهم وهو شيعى . ويقول النقاد إنه كان كاذباً فى شعره مدحه وغزله ، ولكنه كان مجدداً بارعاً فيه ، ولعلّ الذى دفعهم إلى هذا التعميم كذبه فى مدحه . وقد قال محمد بن سلام الجمحىّ : كان كثير يتقول ولم يكن عاشقاً ، وكان جميل صادق الصبابة والعشق . وقال عبيدة : كان جميل يصدق فى حبه ، وكان كثير يكذب فى حبه .

وليس يعنينا هنا صدق كثير أو كذبه كما يعنينا تفوّقه فى الغزل وإجادته فيه ، فلقد أرانا دموعه تتساقط أكثر من مرة :

إذا قيل مهلاً بعض وجدك لا تشد ... بسرّك لا يسمع حديث فيرفعُ
أبت عبرات من سجـــوم كأنه ... غمامة دجن استهلّ فيقلـــع[1]

(١) سجوم : أى دموع من عين كثيرة الدمع — غمامة دجن : سحابة كثيرة المطر — استهل : اشتد انصبابه .

وقد أشهدنا أنه عفيف فى حبه فيقول :

ضنين ببذل السرّ سمح بغيره ... أخو ثقة عفّ الوصال سميذعُ(١)
أبى أن يبث الدهر ما عاش سرّكم ... سليماً وما دامت له الشمس تطلع
وأصبحت مما أحدث الدهر خاشعاً ... وكنت لريب الدهر لا أتخشع(٢)
وعروة لم يلق الذى قد لقيته ... بعفراء والنهدىّ ما أتفجع

فهو كتوم للسرّ عفيف فى الوصال محافظ على العهد كثير الوجد حتى ليريد أن يسابق الشعراء العشاق . وقد روى أحد الأدباء أن كثيراً حجّ فى إحدى السنين وحجت عزة من غير أن تعلم بوجوده ، فأمرها زوجها بابتياع سمن لطعامه ، فجعلت تدور الخيام حتى دخلت عليه وهى لا تعلم خيمته ، وكان يبرى سهماً فأصبح يبرى لحمه وهى تمسح الدّم فأنشد يقول :

خليلىّ هذا رسم عزة فاعقلا ... قلوصيكما ثم انظرا حيث حلّت
ومسّا تراباً كان قد مسّ جلدها ... وبيتاً وظلاًّ حيث باتت وظلّت
ولا تيأسا أن يمحو الله عنكما ... ذنوباً إذا صليتما حيث صلّت
وما كنت أدرى قبل عزة ما البكا ... ولا موجعات القلب حتى تولّت
وكانت لقطع الحبل بينى وبينها ... كناذرة نذراً فأوفت وحلّت
فقلت لها يا عز كل مصيبة ... إذا وطّنت يوماً لها النفس ذلّت

وهى قصيدة رقيقة جميلة تبين عن حبّ وتفصح عن هوى ، فتقدس التّراب الذى حلت فيه الحبيبة وتستهين فى سبيلها بكل مصيبة ، والشاعر يبكى ويتوجع ويخاف الفراق . وهو على ذلك وفى أمين يقول فيها :

لا تغدرنّ بوصل عزّة بعدما ... أخذتْ عليك مواثقاً وعهودا
إن المحبّ إذا أحب حبيبه ... صدق الصفاء وأنجز الموعودا

---

(١) سميذع : كريم سخى .
(٢) عروة بن حزام : عاشق عفراء وهو من الشعراء العشاق المشهورين بالصبوة والغزل — والنهد : هو عمرو بن عجلان عاشق هند بنت كعب وهو جاهلى يضرب بعشقه المثل .

الله يعــلم لو أردت زيــادة / فى حبّ عزة ما وجــدت مزيدا
رهبان مديــن والذين عهدتهــم / يبكون من حذر العذاب قعــودا
لو يسمعون كما سمعت كلامهــا / خرّوا لعــزة ركعــاً وسجودا

وما يفتأ الشاعر يدلى ببراهين الوفاء وشدة الحب ، فهو مفتون بها وهو يعتقد أن الرهبان لو سمعوا كلامها لخروا لها ركعاً وسجوداً . ثم يقول مكنّياً عن عزة بسعدى :

وكنت إذا ما زرت سعدى بأرضها / أرى الأرض تطوى لى ويدنو بعيدها
من الخفرات البيض ودّ جليسهــا / إذا ما انقضت أحدوثــة لو تعيدها
منعمة لم تلــق بؤس معيشــة / هى الخلد فى الدنيا لمــن يستفيدها
هى الخلد ما دامت لأهلك جــارة / وهل دام فى الدنيا لنفس خلودهــا
فتلك التى أصفيتها بمــودّتى / وليداً ولمــا يستبن لى نهودُها
وقد قتلت نفســاً بغير جريرة / وليس لها عقل ولا من يقيدهــا(١)
فكيف يودّ القــلب من لا يودّه / بلى قد تريد النفس من لا يريدها
ألا ليت شعرى بعدها هل تغيّرت / عن العهد أم أمست كعهدى عهودُها
إذ ذكرتها النفس جُنّتْ بذكرها / وريعت وحنت واستخف جليدُها(٢)

وهذه الزيارة التى أطوى لها الأرض فى لقاء آنسة جميلة بيضاء فاتنة الحديث ترى السعادة والخلود بقربها ، قد أصفيتها الودّ وهى صغيرة ، ولكنها قتلت نفسى بغير جرم ، فإذا ذكرتها جننت بذكرها وقلّ صبرى وتجلدى .

وهكذا ترى أن الشاعر غزل قوىّ يقع من المدرسة البدوية موقع العقد ، لكنه ينحطّ فى شعوره الرقيق وسلاسة أسلوبه وجنون معانيه الغزلية عن مدرسة جميل ، وما نرى إلاّ أنه يلحق بهم لولا أنه ابتلى بالسياسة وحكم عليه أن يقول فى

(١) عقل : دية — أقاد القاتل بالقتيل : أى قتله به ، والقود : القصاص وقتل القاتل بدل القتيل .
(٢) الجليد : من الجلد والصلابة ، وهنا بمعنى استرخى صبرها وقوتها .

أبواب أخرى من الشعر اضطرته إلى جزل القول وبليغ الكلام ، وما امتازوا عليه إلاّ بتفردهم فى الغزل وانصرافهم إليه بجسمهم وعقلهم ولسانهم ، وكان كثيّر موزّع الأغراض والنوازع خصّ قلبه بشىء وعقله بأشياء ، فكان منه هذا الغزل البدوىّ وحسبه .

وأما يزيد بن الطثرية فهو كذلك شاعر غزل صريح لين يمثل شعر البداوة أجمل تمثيل ، وقد كان يحيا حياة عبث ولهو وغزل وحبّ ، يتمتع بالحياة فى سذاجة وبراءة ، لذلك لا نجد فى غزله ما تستكره روايته ، وكان يزيد جميل الوجه حسن الصورة رقيق اللفظ عذب الحديث ؛ ففتن النساء وافتتن بهنّ ، فقال فى وصفهن ، وكان شريفاً عذريًّا فى غزله كما زعموا ، وقد روى كتاب الأغانى من حبه وهواه ما يحسن الرجوع إليه فى حذر وشكّ ، ولكنه على كل حال يبرهن على صلة الرجل بالنساء وغزله فيهن .

ولقد حام حول يزيد حديث فى الحبّ شبيه بتلك الأحاديث التى حامت حول جميل وقيس وكثيّر ، وقيل إن الرجل عشق ومرض حتى أشرف على الموت وحتى يئس الأطباء من شفائه ، وقيل إنه كان يحتال فى زيارة صاحبته ويلحّ حتى تدخلت الدولة والسلطان ، فحيل بينه وبين صاحبته « وحشية » ولكن الشاب والفتاة لم يأخذا بهذه الألوان من الحجب بل تجاوزاها إلى الزيارة والاجتماع ، حتى لقد أصابه الأذى فى سبيلها فما وقف وما تراجع ، شأنه فى ذلك شأن زملائه أصحاب الهوى العذرىّ ، ولكنه زاد عليهم أنه تغزل بالنساء وعقر لهنّ كما فعل امرؤ القيس من قبل . وقد كتب يزيد إلى وحشية يقول :

أحبك أطـراف النهار بشاشـة	وباللـيل يدعونى الهـوى فأجيبُ
لئن أصبحت ريـحُ المودّة بيننا	شمالاً لقدمـاً كنت وهى جنوب

وقال فيها كذلك :

بنفسى من لو مرّ بَرْدُ بنانـه	على كبدى كانت شفاء أناملُه
ومن هابنى فى كل شىء وهبتـه	فلا هو يعطينى ولا أنا سائله

وهو شديد الحياء هنا كثير الخوف ، على أنه يعرف علة كبده ويعرف دواءه فلا هو يطلب ولا هي تمنحه الشفاء . ويقول في غزله كذلك :

نازعتها غَمْ الصِّبا إنّ الصِّبا … قد كان مني للكواعب عيدا
يا للرجال وإنما يشكو الفتى … مرَّ الحوادث أو يكون جليدا
بكرت نوار تجدّ باقية القوى … يوم الفراق وتخلف الموعودا
ولربّ أمر هوًى يكون ندامة … وسبيل مكرهة يكون رشيدا

فهو صابر جلد على هواهن ولكن الفراق يقطع منه القوى ، ومع ذلك يفخر بعطف النساء وحبهن له ، ويعاتبهن ويصرمهن فيقول :

ألا بأبي من قد برى الجسمَ حبُّه … ومن هو موموق إلىّ حبيبُ
ومن هو لا يزداد إلا تشوّقاً … وليس يرى إلاّ عليه رقيبُ
وإني وإن أحمَوْا علىّ كلامها … وحالت أعادٍ دونها وحروبُ(١)
لمثن على ليلى ثناء يزيدها … قواف بأفواه الرّواة تطيبُ
أليلى احذرى نقض القوى لا يزل بنا … على النأي والهجران منك نصيبُ
وكوني على الواشين لدّاء شغبة … كما أنا للواشي ألدّ شغوبُ
فإن خفت ألا تُحكِمي مرة القوى … فردّى فؤادي والمزار قريبُ

فهي قد برت جسمه بحبها وهي حبيبة مع ذلك إليه ، يزداد بها شوقاً وإليها كلفاً ، ولكن دونها الرقباء والأعداء والحروب . وهو يسيّر بذكرها القوافي ويطلب إليها أن لا تسمع للوشاة ، فإذا أرادت صرمه فلتردّ إليه فؤاده .

ويزيد لا ينحطّ عن مستوى شعراء البادية في وصفه وحبه وعواطفه القوية إلى شجاعته وقوته واستعداده للثأر واعتداده بشعره وشبابه .

وأما عبيد الله بن قيس الرقيّات فقد اشتهر بالغزل حتى قيل إنه لقّب بالرقيّات لأنه شبب بثلاث اسمهنّ رقيّة . وعاش أخا سفر يتقلب في البلاد ،

(١) أحمى : حرم ومنع .

فرحل إلى الجزيرة وفلسطين وسجستان فيما رووا ، وأقام فى ترف ودعة ، وعرف بغزله فى أم البنين زوجة الوليد بن عبد الملك ، وهى ابنة عبد العزيز بن مروان ، وقيل إن الغزل وقع من نفسها موقعاً حسناً ووقع من زوجها موقع الغضب ، وقد تلنا من قبل ما كان للنساء من شغف فى أن يذكرن فى الشعر وأن يتناولهن المديح . وبلغ من عدوان الأمويين عليه أنهم أهدروا دمه فلجأ إلى بيت فى الكوفة عرف أن صاحبته هى « كثيرة » بعد أن آوته ونصرته فأحبها وقال فيها :

كوفية نازح محلتها ... لا أمم دارها ولا صقَبُ
والله ما إن صبت إلىّ ولا ... إن كان بينى وبينها نسبُ
إلاّ الذى أورثت كثيرة فى الـ ... قلب وللحبّ سورة عجبُ
لا بارك الله فى الغوانى فما ... يصحبن إلا لهن مطّلب
فهن ينكرن ما رأين ولا ... يعرف لى فى لداتى اللعب

وهو يكره أن يعلمها بحبه ولكنه لا ينكر أن يبين عن عواطف الحبّ وميله إليها ، وهو فى ذلك لا يجنّ هوى ولا يصف أجزاء جسمها ولا يرسم حديثاً دار بينه وبينها ، فهو يعرف طباع الغوانى وما يحملن من تقلب ومطلب نفع . وقد ألح على عبيد الله الشيب فوصف موقف النساء منه :

بكرت علىّ عواذلى ... يلحيننى وألومهنه
ويقلن شيب قد علا ... ك وقد كبرت فقلت إنه
إن العواذل لمننى ... ولن أطيع أمورهنّه
فيما أفيد من الغنى ... والله سوف يهينهنه

ويقول فى الشيب ويتوجع منه :

ذهب الصبا وتركت غيّتيه ... ورأى الغوانى شيب لمّتيه
وهجرننى وهجرتهن وقد ... عنّت كرائمها يطفن بيه

إذ لمّتى ســوداء ليس بهــا　　وضــح ولم أفجــع بإخوتيه

وهذا الشيب قد خاف منه شعراؤنا جميعاً منذ الجاهلية حتى العصر الحاضر ، فقد بكوا على الشباب وما كان فى الشباب من ذكريات أصبحت جميلة مقدسة ، وعبيد الله يلحّ فى ذلك :

ألا هــزأت بنــا قــرشــ　　ـية يهتــز موكبهــا
رأت بى شيبــة فى الــرأ　　س منّى مــا أغيبهــا
فقالت : ابن قيس ذا　　وغــير الشيب يعجبهــا
رأتنى قــد مضى مــنى　　وغضّــات صواحبهــا
ومثلك قــد لهوت بهــا　　تمــام الحســن أعيبهــا
لها بعلٌ غيــور قــا　　عدٌ بالبــاب يحجبهــا
يــرانى هــكذا أمشى　　فيوعــدها ويضربهــا
ظللتُ عــلى نمارقهــا　　أفــدّيهــا وأخلبهــا
أحدّثهــا فتــؤمن لى　　فأصــدقها وأكــذبهــا

وهذه صورة فى الغزل جميلة سبق إلى الاعتداد بمثلها امرؤ القيس حين راح يفخر بعديد ضحاياه من النساء « فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع » ، ولكن الجديد فيها هو الزوج الغيور الذى يتوعد زوجه ويضربها ، والبعل أمير المؤمنين الوليد ابن عبد الملك والزوجة أم البنين ، ويدّعى الشاعر بعد هذا كلّه أنه يروى حلماً ليس غير ، ولكنه يوغل فى الحلم حتى ليقربه فنحسبه واقعاً :

أتتنى فى المنــام فقلــ　　ـت هــذا حين أعقبهــا
فلمــا أن فرحتُ بهــا　　ومــال عــلىّ أعذبُها
شربت بريقهــا حــتى　　نهلتُ وبتّ أشربهــا

وبت ضجيعها جذلا ... نَ تعجبني وأعجبها
وأضحكها وأبكيها ... وألبسها وأسلبها
أعالجها فتصرعني ... فأرضيها وأغضبها
فكانت ليلة في النو ... م نسمرها ونلعبها
فأيقظنا منادٍ في ... صلاة الصّبح يرقبها
فكان الطيفُ من جنّـ ... ـيّة لم يدر مذهبها
يؤرقنا إذا نمنا ... ويبعد عنك مسربها

ومهما يكن من أمر هذا اللقاء سواء أكان فى المنام أم فى الحقيقة فهو لقاء حيّ ، بلغ به ابن قيس ذروة الإبداع فى التصوير ، فكأنه « حلم ليلة صيف » أو هو حلم الشباب رسمه الشاعر كما يرسم الشعراء الإبداعيون فى الغرب ، لا نكاد نفرق بينه وبينهم فى صدق التصوير وما يقع بين العاشق والمعشوقة من سمر ولعب وغضب ورضا يقف سيله أذان الصبح . وقد ارتفع الشاعر بالشعر الغزلى إلى منزلة سامية تجعلنا فى الغزل العالمى وبين صفوف شعرائه ، فهو فى عبارة رقيقة سهلة رشيقة خفيفة الوزن عظيمة الوقع على السمع عذبة المعانى ، بدأت بالحلم اللذيذ وانتهت باليقظة الحاسمة .

ولسنا نعرض هنا للأسباب التى جعلت اللقاء حلماً بين الشاعر والجنيّة ، فذلك فى باب السياسة وصلات الشاعر بالخليفة لعصره ، وذلك ألصق بكتاب آخر فى الموضوع يستطيع القارئ أن يعوج فيه على ديوانه المطبوع فيجد فيه بغيته وأمنيته . وقد ظهر لنا أن عبيد الله كان فى تعابيره وموسيقاه وصدق ألفاظه وصراحة كلامه قريباً من المغنين حبيباً إلى العامة تطرب له وتتذوقه قراءة وغناء .

الفصل الخامس

المدرسة الحضرية في الحجاز والشام

في الحجاز :

أظن أننا جمعنا من أخبار الشعراء البادين وغزلهم ما ينفعنا في تصور ما كانوا عليه من تتبع للهوى وسعي وراء المحبوبة وهيام وشقاء وجنون ، وينفعنا كذلك في تذوق ما كان عليه شعرهم من رقة وسلاسة وبساطة وسذاجة .

ولكننا الآن سننقلب إلى مدرسة جديدة تمتاز بالغزل المادي الواقعي ، ففيها استمتاع واقع وفيها قصص قصيرة وفيها حوار ، وفيها على هذا وذاك نماذج من الحياة الاجتماعية في الحضر ، إذا صدق الرواة وثبت ما نقل إلينا عن اللقاء والإغارة على البيوت والتخلص في الزيارة . والناس يعرفون أن عماد هذه المدرسة هو عمر بن أبي ربيعة وزملاؤه العرجي والأحوص والوليد بن يزيد . ولكننا نحب أن نجعل فيهم شاعراً اختلف النقاد في سيرة حياته واختلفوا في ولادته وشك العلماء في وجوده . والقارئ يعلم أننا نتسلم النصوص كما وصلت إلينا فنعمل فيها التحليل لنتصور فن القول كما وجد أو كما اخترعه الذين أرادوا وجوده فقلدوا الصورة والسيرة .

هذا الشاعر هو وضاح اليمن (عبد الرحمن بن إسماعيل) ولن أزيدك معرفة في ولادته ونسبه لأن القدماء لم يتفقوا على أمر فيه ، ولكنني أنقل إليك أنهم رووا من سيرته في الأغاني وغير الأغاني ما يتلخص في أنه ورد مواسم العرب يستر وجهه خوفاً من العين وحذراً على نفسه من النساء لجماله . ورووا أنه كان يهوى امرأة من أهل اليمن اسمها « روضة » ، وزعموا أنها كانت تبادله

الحب وأن هذا الحب ذاع فى الناس ، فلمّا خطبها إلى أهلها أبوا عليه ذلك كما رأينا عند جميل وابن ذريح والمجنون وكثيّر ، ولكن هذه القصة تنتهى بمرض الفتاة وانقلاب العشق إلى رحمة بها وعطف عليها ليس غير .

وروى الأدباء قصة هواه بأم البنين زوج الوليد بن عبد الملك وهى فاتنة ساحرة ، فلما سافرت إلى الحج وقف الغزلون عن التعرض لها إلا وضاح اليمن ، وكانت بينه وبينها علائق حب كما زعموا انتهت بلقاء وانتهى اللّقاء بأمر غريب وهو دخول خادم الخليفة عليها ، فأخفت الشاعر فى صندوق ، فلما علم الخليفة بالأمر تصنع الجهل واستهداها الصندوق واحتفر بئرًا ألقاه فيها وهال التراب عليه وانطوى خبر الشاعر فيما يتناقل الرواة .

هذه هى القصص التى نقلوا عن حياة الرجل . وأما شعره الذى رووا خلال هذا العبث وهذا اللّهو فهو شعر لين سهل لطيف مسرف فى السهولة، حتى ليتقرب من النثر. وسنضرب الأمثال لنقفك على صور منه . قال فى « روضة » صاحبته :

إنى تهيجنى إليـ ... ـك حمامتان على فنن
الزوج يدعو إلفه ... فتطاعما حبّ السكن
لا خير فى نثّ الحديـ ... ـث ولا الجليس إذا فطن[1]
فاعصى الوشاة فإنما ... قول الوشاة هو الغبن

وهذه معان معروفة عند الغزلين حين يدعوهم إلى الذكرى والصبابة ، ولكن له شعرًا يذهب فيه النقاد إلى الإعجاب أى مذهب ويرون فيه نواة الشعر التمثيلى حين يقول فى روضة :

قالت : ألا لا تلجن دارنا ... إن أبانا رجل غائرُ
قلت : فإنى طالب غرة ... منه وسيفى صارم باتر

(١) نث الحديث : أذاعه وأفشاه .

قالت : فإن القصر من دوننا ... قلت : فإنى فوقه ظاهـــر
قالت : فإن البحر من دوننا ... قلت : فإنى سابـــح ماهر
قالت : فحولى إخوة سبعـــة ... قلت : فإنى غالب قاهـــر
قالت : فليثٌ رابض بيننا ... قلت : فإنى أســـد عاقر
قالت : فإن الله من فوقنـــا ... قلت : فربى راحم غافـــر
قالت : لقد أعييتنـــا حجة ... فأتِ إذا ما هجع السامِرُ
فاسقط علينا كسقوط الندى ... ليـــلة لا ناه ولا زاجـــرُ

وهذا حوار طويل لم نقع على مثله عند شعرائنا ، فقد نسجوا فى مثله ، ولكنهم لم يوغلوا ولم يسرفوا ، ولم يخطر لهم أن يخترعوا الأسئلة والأجوبة وبسط المشاكل وحلّها ، والحرب فى كل الجبهات : فوق الجدران وفى البحار وأمام الأسود . والغريب أنه يحارب الأب والإخوة ولا تغضب ، كأنه يصنع رواية « روميو وجولييت » فى القرن الأول الإسلامى ، يحارب أهلها وتنضمّ إليه . وقد كفانا النقاد مؤونة النقد فقالوا بخروجها على العصر واختراع الحوار .

وهو يقول فى « روضة » كذلك :

ألا ليت الرياح لنـــا رسول ... إليكم إنْ شمالاً أو جنوبا
فتأتيكم بمـــا قلنا سريعـــًا ... ويبلغنا الذى قلتم قريبـــا
ألا ياروض قد عذبت قلبى ... فأصبح من تذكركم كئيبا
ورققنى هواك وكنت جلدًا ... وأبدى فى مفارقَ المشيبـــا
أما ينسيك روضة شحط دار ... ولا قرب إذا كانت قريبا

وهذه المعانى مبسوطة مطروقة ، لكن أسلوب الأداء رقيق بسيط لا تجد فيه اللفظة المتكلفة أو العبارة النابية ، فالريح رسول العشاق منذ كان الغزل العربى ، وعذاب القلب وطروق الشيب وقلة الجلد وبعد الدار وقربها كان ذلك كله عماد القول وواسطة الغزل .

ويقول فى أم البنين شعراً لا يختلف فى الرقة عن شعره فى « روضة » :

أصحـوت عـن أم البنـ ـين وذكـرها وعنائها
وهجرتهـا هجر امرئ لم يقـلُ صفو صفائهـا
قرشية كالشمس أشـ ـرق نـورها ببهائهـا
زادت على البيض الحسا ن بحسنهـا ونقائهـا
لمـا اسبكرّت للشبـا ب وقنّعت بردائهـا
لم تلتفت للداتهـا ومضت عـلى غلوائها

فهى قرشية كالشمس فى بهائها ، حسناء نقية ، رائعة الشباب مزهوة بما تملك من جمال وفتنة .

ولكن الذى صنع الأبيات والقصة فى أم البنين قصّر عن اللحاق بقصائد ابن قيس الرقيّات فيها فلم يصنع كثيراً ولا قليلاً ، ولعله كان يهدف إلى هجاء الخلفاء الأمويين بهذا الغزل ووضعها موضع الحب فسقط دون الغاية والهدف . وقد أوردنا من شعر وضاح اليمن لنمهد القول فى الزيارة والحوار والقصة إلى سيّد الغزل فى العصر الأمويّ .

وعمر بن أبى ربيعة زعيم الغزل فى الأدب العربىّ كله ، ذلك لأنه أتيحت له أسباب الحياة فى اللهو والغزل والعبث . فقد كان غنيًّا مترفاً ، وكان متفرغاً لهذه الحياة الهادئة العاصفة معاً ، بعيداً عن السياسة وما تجلبه من مشاغل ومتاعب ، فلبث راضياً قانعاً يلهو مع أصدقائه ويعبث مع أحبابه ، وقد عاش عمره موكّلاً بالجمال يتبعه ، ما ينتهى من هند إلاّ لينصرف إلى دعد والثّريا وغيرهن ينعم بالنظر وغير النظر ، وحظه من حياته عين تبصر خير ما يرى الناس ولسان ينشد أروع ما يقع عليه الناس ، فإذا به صَنّاجة مطرب فى الحديث عن المرأة

وفى حديثه معها ، وإذا هو سجلٌ لهذا الحوار الذى كان يدور بينه وبينهن كما تحفظه ذاكرته أو تخترعه مخيلته .

لحق عمر بالنساء وشبَّب بهن وتغنى بجمالهن فى موسم الحج وغير الحج ، خلال النهار والليل ، يخرجن للطواف حيناً أو إلى حاجاتهن حيناً أو للتندر والعبث أحياناً ، فانقطع لهن شطراً من عمره ، ورسم القرشيات وغير القرشيات فى ألوان ماديّة حسّية تكاد — إذا صدق — تجلو لنا جانباً من النساء المترفات فى القرن الأول الإسلامى .

ولعلنا لا نسرف حين نقول إنه تخصص فى فن الغزل كما يعكف الدارسون اليوم على فن واحد يتقنونه ويلحُّون عليه ، حتى لقد اتخذ سبيله إلى كل فتاة جميلة مرت بمكة أو أقامت فيها فشبب بها وشهّرها .

ويكفى أن تقرأ ديوانه لتعرف أسماء النساء اللواتى تغزل بهن : زينب بنت موسى الجمحية ، وابنة عمها نعم ، والثريا بنت علىّ بن عبد الله ، وليلى بنت الحارث البكرية ، ورملة بنت عبد الله بن خلف الخزاعية ، وفاطمة بنت محمد ابن الأشعث الكندية ، وغيرهن من نساء يطول سرد أسمائهن مما أبقاه الزمان فى ديوانه .

وقد روى الأغانى أنه عاش ثمانين فتك منها أربعين ونسك أربعين ، ولعله تاب فى أخريات أيامه ، وقد اضطره المشيب والعجز إلى أن يسكت خلال سنواته الأخيرة ، بعد أن تحدّث خلال عدة آلاف من الأبيات عن هواه فى ديوان كلّه غزل بالنساء وحوار معهن ورسائل بينه وبينهن ، وأكثرهن من ذوات الحسب والثراء ، وهن مزهوات بجمالهن يحببن أن يسمعن أثره فى شاعر تخصص بالغزل ، كما نحبّ اليوم أن يصنع فينا رسّام ماهر صورة بارعة نحتفظ بها على الشباب والمشيب للذكرى والتاريخ .

وغزل عمر فيهن رقيق جميل نحب أن نعرض بعضه هنا لنصل إلى حكم فى الشعر والشاعر ، فقد وصف النساء مجتمعات وفرادى ، ونقل ما يكون بينهن من حديث وحوار ووصف إشاراتهن واجتماعاتهن . قال فى هند :

فلما تواقفنـــا وسلّمت أشرقت ... وجوه زهاها الحسن أن تتقنعا
تبالهن بالعـــرفان لمّا عرفننى ... وقلن امرؤ باغ أكلّ[1] وأوضعا
وقرّبن أسباب الهـــوى لمتـيم ... يقيس ذراعاً كلّما قسن إصبعا

فوصفهن فى اجتماعهن وفى مقابلتهن له وفى عونهن للمحب ، وقد سار ذراعاً حين مشين إصبعاً . وهذا أول ما تقع عليه العين فى غزلنا من نقل أوضاع النساء والالتفات إلى رسمهن ، ثم يصف هذا السعى منهن فى تقريب أسباب الهوى :

قالت « ثريا » لأتراب لهـــا قطف ... قمن نحيى أبا الخطّاب عن كثب
فطرن حدًّا لمـــا قالت وشايعهـــا ... مثل التماثيل قد موّهن بالذهب

فنحن نتصور طلب ثريا وزميلاتها فى لقاء عمر وقد اشتهر صيته وذاع عنه أنه يصف كلّ من يلقاه ، فلا يهتم بالمحبوبة نفسها فحسب وإنما يرسم اللّوحة كاملة فيها تماثيل عدّة وبينها صاحبته ، وقد عوّدنا الشعراء قبله أن يرسموا تمثالاً واحداً فى كثير من التفصيل والإلحاح . وهو ينقل إلينا حديثهن وما دار بينهن من كلام :

قومى تصـــدّىْ له ليبصرنا ... ثم اغمزيه يا أخت فى خفر
قالت لها : قد غمزته فـــأبى ... ثم اسبطرت تمشى على أثرى
قالت لهـــا أختها تعاتبهـــا ... لا تفسدن الطّـــواف فى عمر

وهنا نقف على ما كانت عيون النساء تصنع حين يصعب الكلام ،

---

(١) أكل : من الكلال وهو الإعياء — أوضع : أسرع .

ونعرف رقة الحديث بين النساء وخدمة بعضهن لبعض فى مطالب الهوى وأغراض العشق :

ولم يكتف عمر برسم اللّقاء وإنما وصف لباس النساء وجواهرهن :

يرفلن فى مطرفات السوس آونة   وفى العقيق من الديباج والقصب
ترى عليهن حلى الدر متّسقاً   مع الزبرجد والياقوت كالشهب

فكأنه يصوّر لنا الحياة المدنيّة واللباس وأنواعه والحلى وأضرابه؛ ويرسم ذهاب النسوة إلى السباحة فيتبعهن بقوله ، وقد عنّى هنداً بنت الحارث :

ولقد قالت لجارات لها   ذات يوم وتعرّت تبترد :
أكما ينعتنى تبصرننى   عمركن الله أم لا يقتصد !
فتضاحكن وقد قلن لها :   حسن فى كلّ عين من تودّ
حسداً حملنه من أجلها   وقديماً كان فى الناس الحسد

فهو قد بالغ فى جمالها فراحت تسأل صديقاتها عن مبلغ الصدق فى وصفه وهى مزهوة فرحة ، فأجبنها كما تجيب النسوة لكل زمان ومكان ، مدفوعات بالحسد كما قال عمر . وما يفتأ ينقل لنا حديث الفتيات فيما بينهن بعد أن عرفت صديقته بأمر زواجه :

خبّروها بأننى قد تزوجـ   ـت فظلّت تكاتم الغيظ سرّا
ثم قالت لأختها ولأخرى   جزعاً : ليته تزوّج عشرا
وأشارت إلى نساء لديها   لا ترى دونهن للسرّ سترا :
ما لقلبى كأنه ليس منّى   وعظامى إخال فيهن فترا
من حديث نمى إلىّ فظيع   خلت فى القلب من تلظّيه جمرا

وهذا أبلغ وصف للمرأة المنكوبة بزواج حبيبها من غيرها ، فهى تدافع

عاطفة الحب إلى عاطفة الانتقام وعدم المبالاة ، ثم ما تلبث أن تخونها العاطفة فتعترف لصديقتها بما أصابها من وقع النبأ فقد هدّ جسمها وزعزع قلبها :

وقد وصف عمر بن أبي ربيعة فى غزله ما يقع عليه نظره من المرأة :

إنى رأيتك غادة خمصانة ريّا الروادف عذبة مبشارا
محطوطة المتين أكمل خلقها مثل السبيكة بضة معطارا
كالشمس تعجب من رأى ويزينها حسب أغرّ إذا تريد فخارا

ويقول كذلك :

فيهن طاوية الحشا جيداء واضحة الجبين
بيضاء ناصعة البيا ض كدرة الصدف الثمين

وهو فى ذلك كأجداده من شعراء الغزل فى الجاهلية يحبّ الخصور الدقيقة والأرداف البارزة ، والبشرة البيضاء والعنق الطويل والجبين الواضح ، والفم العذب ، والرائحة العطرة ، ويستعمل الألفاظ نفسها والعبارات عينها ، فكأنه يستوعب فى ديوانه ما جاء عند القدماء ويزيد عليه ما اخترعه لنفسه فى هذا الباب .

وأجمل ما اخترعه عمر فى غزله — بعد اللوحات الكاملة للنساء وحديثهن — هو ذلك الحوار والتمثيل والحكاية والقصّة وتفصيل الزيارة . فقد حجت ابنة محمد ابن الأشعث العراقية وسمعتْ بشاعرنا فأرسلت إليه واجتمعا ، وخرج الشاعر يوعد فى زيارتها بالعراق ، وقصيدة جميلة فيها يقول :

عجباً لموقفنا وموقفها وبسمع تربيها تراجعنا[1]
ومقالها : سر ليلة معنا نعهد فإن البين فاجعنا[2]
قلتُ : العيون كثيرة معكم وأظن أن السير مانعنا
لا بل نزوركم بأرضكم فيطاع قائلكم وشافعنا

---

(١) التربان : مثنى ترب وهى الخدينة .
(٢) نعهد : نأخذ عليك العهد والميثاق فى الوفاء والحفاظ على الحب .

قالت : أشيء أنت فاعله هذا لعمرك أم تخادعنا
بالله حدّث ما تؤمله واصدق فإن الصدق واسعنا
اضرب لنا أجلاً نعدّ له إخلاف موعده تقاطعنا(١)

وهذا الشعر أقرب ما يكون للحديث والكلام لبساطته وسهولته وتصوير الواقع من غير تكلّف أو تصنع ، فهي تقلق لبعده فيهدئ روعها بوعده ، وهي تخاف ما فطر عليه الرجال من كذب في مثل هذه المواقف وأخصهم عمر بن أبي ربيعة .

ولعل العراقية تعرف أنه سينقلب إلى غيرها فيعيد على مسمعها ما قال في كل موقف من مواقف غرامه ؛ فقد اجتمع إلى هند بنت الحارث المرّية وهي إحدى جميلات عصرها ، وقد مرّ بنا وصفه لها ، ونقل إلينا ما كان في الاجتماع من حوار :

ولقد أذكر إذ قلتُ لها ودموعي فوق خدّي تطّرد
قلت: من أنت؟ فقالت: أنا من شفّه الوجد وأبلاه الكمد
نحن أهل الخيف من أهل منى ما لمقتول قتلناه قود
قلت : أهلاً أنتم بغيتنا فتسمّين فقالت أنا هند

وبراعة عمر في أنه يصور براءة النساء وسذاجتهن في مواقف الحب ، فهنّ سريعات التصديق كثيرات التهديد والوعد بقتل من يحببّهن فإذا هنّ بعد قليل قتيلات الحب والصبابة ، وما نظن أنهن اختلفن على أربعة عشر جيلاً عما رسمه الشاعر .

هذا تصوير قصير للّقاء،أما قصة اللّقاء والزيارة فشاعرنا يتبرع بها كذلك في كل حين ، ليرسم لنا كلّ ما وقع له فيقول في قصيدة طويلة بعد أن اجتاز الحراس :

---

(١) نعد له : أي نعد الأيام لحلوله حتى إذا أخلفت قاطعناك .

فحييتُ إذ فاجأتها فتولّهت — وكادت بمخفوض التحية تجهرُ
وقالت وعضت بالبنان فضحتنى — وأنت امرؤ ميسور أمرك أعسرُ
أريتك إذ هنّا عليك ألم تخف — — وقيت — وحولى من عدوّك حضّرُ
فوالله ما أدرى أتعجيل حاجة — سرت باك أم قد نام من كنت تحذر؟
فقلت لها : بل قادنى الشوق والهوى — إليك وما نفس من الناس تشعر
فقالت وقد لانت وأفرخ روعها : — كلاك بحفظ ربك المتكبر
فأنت أبا الخطّاب غير مدافع — علىّ أمير ما مكثت مؤمّرُ

* * *

فلما رأتْ من قد تنبّه منهم — وأيقاظهم قالت : أشر كيف تأمر؟
فقلت : أباديهم فإما أفوتهم — وإما ينال السيف ثأراً فيثأر
فقالت : أتحقيقاً لما قال كاشح — علينا وتصديقاً لما كان يؤثر؟
فإن كان ما لا بدّ منه فغيره — من الأمر أدنى للخفاء وأستر
أقص على أختىّ بدء حديثنا — ومالى من أن تعلما متأخّرُ
لعلّمها أن تطلبا لك مخرجا — وأن ترحبا سرباً بما كنت أحصر (١)
فقامت كئيباً ليس فى وجهها دم — من الحزن تذرى عبرة تتحدّرُ
فقامت إليها حرّتان عليهما — كساءان من خز دمقس وأخضرُ
فقالت لأختيها أعينا على فتى — أتى زائراً والأمر للأمر يقدرُ
فاقبلتا فارتاعتا ثم قالتا — أقلّى عليك اللّوم فالخطب أيسرُ
يقوم فيمشى بيننا متنكراً — فلا سرّنا يفشو ولا هو يظهرُ
فكان مجنّى دون من كنت أتقى — ثلاث شخوص : كاعبان ومُعصر (٢)

والذى يعجبنا فى هذه القصيدة هو أولاً هذا الحوار الدقيق فى لقاء العشيقة

---

(١) السرب : الطريق — أحصر : من الحصر وهو الضيق ، والمراد هنا سعة الحيلة فى الخلاص
(٢) الكاعب : هى التى نهد ثديها — المعصر : هى التى بلغت تمام الشباب وأدركت .

وما صنعت من خوف أول الأمر وما قالت من لوم ثم إيمانها بحبه ونزولها عند رغبته ، والحوار كذلك حين الفراق والخوف من تنبه القوم وإظهاره الشجاعة وخوفها الفضيحة ونجدة الأختين وما دار من كلام فى العتب ثم الرضا عنه . ويعجبنا كذلك هذه الألوان التى رسمها للمعشوقة ولأختيها وما كانتا عليه من لباس ، فلم ينس دقيقة من دقائق المشهد التمثيلى فى القصة ، واستوعب كلّ ما مرّ به من ذكريات واقعية كما يزعم .

هذا وقد زاد الشاعر فى غناه بساطة ألفاظه وسلاسة تعابيره وموسيقا قصيدته ، فكأننا نشهد ما وقع له وكأننا نتألم ونفرح فنتبعه حتى ينتهى إلى الخلاص ، شأننا فى ذلك شأن القصص البارعة التى تملك اللبّ ويؤمن بها العقل فيحسب أنه مضطر إلى أن يتبع ما فيها حتى يعرف ما كان من خير وما كان من شر .

وفوق ذلك كلّه فشاعرنا أوّل من عنى برسم عواطف المحبوبة وما يقع لها من حزن وفرح ، فهى مخلوقة تشاركه السرور والحزن يضطر إلى رسمها والاهتمام بها ليعرف ما كانت عليه حين اللقاء من لذة وحين البعاد من ألم ، وقد عوّدنا أكثر الشعراء قبله أن يهتموا برسم جسدها وجمالها وما يقع فى نفوسهم من أثر ذلك . أما هو فعنى بها ورسمها ليعنى بنفسه آخر الأمر ويعظم من شأنه على كل حال ، ويصوّر انتصاره فى الحبّ وكلف النساء به وحرصهنّ عليه وتكلفهنّ ألوان الخوف والتضحية فى سبيله ، سواء أكان صادقاً فيما قال أم مخترعاً فيما غصّ به ديوانه .

ولن نسهب فى الحديث عن عمر فنحن نستطيع أن نحصى صواحبه وأوصافهن وما كان بينه وبينهن ، وأن نصف لياليه وأحاديثه عنهن وموضع ذلك من التاريخ أو القصة ، ولكن ذلك يطول ؛ فقد رسمنا نماذج منه تغنى فيما نرى عن استعراض الديوان كله وبسط الحياة منذ ولادة الغزل عنده حتى

توبته ! وإنما نريد أن نتحدث عن قرشى آخر سار على سبيله لنعرف أين بلغ من هذا السبيل .

ذلك هو العرجىّ (محمد بن عبد الرحمن المخزومى) وهو من أبناء عثمان بن عفان ، ومن بيت غنى وترف ، وقد نسب إلى عرج الطائف فيما قالوا ، وعاش لاهياً عابثاً كما عاش عمر ، وتغزل أكثر ما تغزل فى نساء مكة من الحرائر أو من الحواجّ من شريفات العرب ونبيلاتهن ، ووصف حياته اليومية كمرآة صادقة ، وكان شبيهاً بعمر فى لين العبارة ووضوح اللّفظ وقابلية شعره للغناء والإنشاد ، فلم يصنع شعره للغويين وأرباب المعاجم ، وإنما صنعه لنفسه وأصحابه وصواحبه ، بل لعله صنعه للناس يتلونه ويتغنون به ويطربون عليه ، وقد وفق فى ذلك كما وفق عمر فأصبح شغل الناس يشتركون فى روايته رجالاً ونساءً من كل الطبقات والهيئات ، كأنما مكة والمدينة والطائف تتغنى بشعره وتنشده .

وأخبار حبه لأم الأوقص مشهورة ذائعة ، رواها كتاب الأغانى على شكل شبيه بزملائه من شعراء الحجاز ، فقد احتال العرجىّ فلبس لباساً لأعرابى واجتمع إلى نسوة فيهن أم الأوقص ، فلم تعرفه أول الأمر ، ولبث يتمتع بجمالها حتى إذا عرفته صاحت : العرجىّ ورب الكعبة ، ووثبت نافرة ، فسترها أترابها وصرفنه .

تغزل فيها فقال :

وتبسمت لى عن أغـرّ مؤشّر ... ظلم نمـير بارد أنيابـه
بيضاء تنسجها الصبا فى مشرق ... حلّ القلوب الصاديات حجابه

فهو يصف الأسنان والريق وبياض البشرة مثل غيره من شعراء الجاهلية ، وهو يصف الشيب وموقعه من قلوب النساء فيقول :

إن رأت روعة من الشيب صـــارت في قذالى مبينـــة كالشهاب
تحت ليـــل بكف قابس نار اعتشاها بعارض من سحـــاب
قلتُ : مهلاً فقد علمت أنـــاتى منك هذا وقد علمت جوابى
ليس ناهىّ عن طلاب الغوانى وخط شيب به ودرس خضاب

ويتعرض للوشاة والحسَّاد والرقباء ويبكى للحمام مثل غيره من الشعراء فيقول :

والله ما قربت قربى ولا نزحت إلاّ استخف إليها قلبـــه طربا
ولا دعت شجوها يومـــًا مطوّقة إلاّ ترقرق مـــاء العين فانسكبا

ويصف الحزن والأسى للفراق ويرسم الحلى والأطواق والبرود :

كأنما الحلى على نحـــرها نجـــوم فجر ساطع أبلج
تذود بالـــبرد لها عـــبرة جادت بها العين ولم تنشج
مخافة الواشـــين أن يفطنـــوا لشأنهـــا والـــكاشح المزعج

وهو رقيق إذ يصف مواقفه مع النساء :

فمن يفـــرح ببينهـــم فغيرى إذ غـَدَوْا فرحا
فهزت رأسهـــا عجبـــاً وقالت : مـــازح مزحا
فيا عجبـــاً لمـــوقفنـــا وغيّب ثَمّ مَنْ كشحا
تبعتهم بطـــرف العيـ ـن حتى قيل لى افتضحا
فودّع بعضنـــا بعضـــاً وكلّ بالهـــوى صرحا

وهذا شعر لطيف يرسم فيه الحوار والموقف ووداع الحبيبة بطرف العين ، وهو سهل بسيط يصلح للإنشاد والغناء . وهو يصف اجتماعه بالنساء فى صراحة فيقول :

فلأم شملي بعد ما شتّ حقبة ... بهن وذو الأضغان منهن جاهدُ
بحور كأمثال الدّمى قطف الخطى ... لهون وهنّ المحصنات الخرائدُ
أمنّ العيون الرامقات ولم يكن ... لهن به عين سوى الصبح ذائدُ
فبتّ صريعاً بينهن كأنني ... أخو سقم تحنو عليه العوائدُ
يوسدنني جمّ المرافق زانها ... جبابرها غصت بهن المعاضدُ
يفدّينني طوراً ويضممن تارة ... كما ضمّ مولوداً إلى النحر والد
يقلن ألا تبدى الهوى يستزدنني ... وقد يستزاد ذو الهوى وهو جاهدُ
لعمرى لئن أبدين لى الوجد إنني ... بهنّ وإن أخفيتُ ودّى لواجدُ

فيصف لهو النساء حتى الصباح وهو صريع بينهن كأنه عليل تحنو عليه العائدات يتوسّد منهم المرافق ، ويضممنه تارة ويفدّينه تارة ، ويبعثن فيه حميّا الهوى وهنّ محبّات يخفى أمامهن الوجد وإن كان مشوقاً متيّماً ؛ وقد سبق ابن أبي ربيعة فى صراحته الحسّية وما كان له مع النساء . وهو يصف الحوار وينقله كذلك :

قالت : وهل كان ما زعمت من الـ ... ـوجد لنا أنت تحسن الجدلا
اسمعى أخت ما يقول وقد ... أعرف أن قد تملأت جذلا
قالت لها : قد سمعت فاغتنمى ... منه الذى قال أخت إن فعلا
قالت : فو الله لو بذلت له ... ودّى مع الخلّة أخت ما قبلا
ولا هناه حتى يشوب به ... وذا أراه لو دنا دخلا
هو الملول الذى سمعت به ... ولا أحب الشوابة المللا

وحوار النساء هنا فى صدد العرجى والاستفادة منه وقضاء الوطر واغتنام الفرصة قبل ضياعها فهن يعرفن أنه ملول متقلّب. وهو بذلك كلّه يمتدح نفسه ويجعلها موضع الحبّ ، والنسوة يسعين إليه فيصف حوارهن فى شأنه . والعرجى يزور النساء كما يزور عمر سواء بسواء فيقول :

جن قلبى بذكـر أم الغـلام يوم قالت لنا : بلجوا بسـلامِ
زينت لى شـواكلى كلّ لهـو ذات لوث من الصبّاح الوسام
ربما مثلهـا تسدّيتُ وهنـاً بعد فتر وتحت داجى الظلام
ثم نبهتهـا فهبت كسـولاً فاهة ما تبـين رجـع الكلام
ساعة ثم إنهـا بعـد قالت و يلتى قد عجلت يا ابن الكرام
أعلى غير موعـد جئت تسرى تتخطى إلى رءوس النيـام
عذلتنى فقلت لا تعـذليـنى ودعى اللـوم واقصدى فى الملام
قد تجشمت ما ترين من الهـو ل وما جئت ههنـا لخصـام
فارعـوت بعد نفـرة نفرتهـا بسكـون وهمـزة وابتسـام
وعلى الباب ذى الشقيقة سعدى لا أرى مثلها من الخـدّام
كلّما صفقت وثـبن إليهـا كقيام الشرطىّ عنـد الإمام
يتسوّكن قبـل كلّ طعـام واسعات الجيـوب والأكمـام
حبذا هـنّ حيث كن من الأر ض ولو بين زمـزم والمقام

فقد طرقها ليلاً ونبهها من نومها فاستقبلته باللوم والنفور ثم لانت وابتسمت وقام الخدام بما تطلب من خدمة الضيف والقيام بتنفيذ رغباته . ولا نرى عند العرجى ما رأينا عند عمر سعياً إلى الخروج وحيلة فى التخفى فلا شك أن الرجل وجد حيلة لم يبسطها فى شعره ، ولكنه كان داعراً فأفصح عن غايته فى كل أبيات القصيدة .

وإذا كان العرجى قد سلك سبيل عمر فإنه لم يوفق مثله فى القصة والحكاية وطول الحوار .

وأما الحارث بن خالد المخزومى فقد قال صاحب الأغانى فيه إنه « أحد الشعراء الغزليّين . وكان يذهب مذهب عمر بن أبي ربيعة لا يتجاوز الغزل إلى المديح ولا الهجاء ، وكان يهوى عائشة بنت طلحة بن عبيد الله ويشبب بها ، وولاّه عبد الملك بن مروان مكة ، وكان ذا قدر وخطر ومنظر فى قريش ، وأخوه عكرمة بن خالد المخزومى محدّث جليل من وجوه التابعين » .

وقد سقنا عبارة الأصبهانى لنشير إلى أسرة الرجل وما كان عليه أخوه من التقوى والورع والدين وما كان عليه الشاعر من جمال وقدر ومكانة . ومع ذلك كان الحارث ينافس عمر بن أبي ربيعة فى غزله بالنساء . وذلك لأن الرجل كعمر والعرجى قد تفرغ له ووقف نفسه عليه واستهان بكل شيء فرصد النساء .

روى أن عائشة حجت وكان الحارث يهواها فأرسلت إليه وهو يحج بالناس أخر الصلاة حتى أفرغ من طوافى فأمر المؤذنين فأخروا الصلاة حتى فرغت ثم أقيمت الصلاة فصلى بالناس ، وأنكر أهل الموسم ذلك من فعله وأعظموه ، فعزله عبد الملك ، وكتب إليه يؤنبه فقال : « ما أهون والله غضبه إذا رضيت ، والله لو لم تفرغ من طوافها إلى الايل لأخرت الصلاة إلى الليل » .

وفى هذه القصة بيان عن مبلغ هواه واستهتاره ، قال الشاعر فى هذا الحب :

زعموا بأن البين بعد غد ... فالقلب مما أحدثوا يجف
والعين منذ أجدّ بينهم ... مثل الجمان دموعها تكف
ومقالها ودموعها سجم : ... أقلل حنينك حين تنصرف
تشكو ونشكو ما أشت بنا ... كلّ بوشك البين معترف

فهو يبكي للبين وهى تحدثه وتجفف من عبرته وتخفف من حنينه على أنها لا تقل عنه شكوى و بلوى .

ووقف الحارث ذات يوم على جمرة العقبة فرأى أحسن الناس وجهاً وكان فى خدّها خال ظاهر ، فسأل عنها فأخبر بها ، واستأذنها فى الحديث فأذنت ولبث معها أيام الحج فلما انقضت قال فيها :

ألا قل لذات الخال يا صاح فى الخدّ تدوم إذا بانت على أحسن العهد
ومنها علامات بمجرى وشاحها وأخرى تزين الجيد من موضع العقد
وترعى من الود الذى كان بيننا فما يستوى راع الأمانة والمبدى
وقل قد وعدت اليوم وعداً فأنجزى ولا تخلفى لا خير فى مخلف الوعد
وجودى علىّ اليوم وعداً فأنجزى ولا تبخلى قدّمت قبلك فى اللّحد
فمن ذا الذى يبدى السرور إذا دنت بك الدار أو يعنى بنأيكم بعدى

وقد وصف وجهها وخدها وجيدها وطلب منها إنجاز الوعد وحفظ العهد . ونحن لا نرى فى هذا الشعر ما يشبه عمر بن أبى ربيعة أو العرجى وإنما نجده سهلاً فحسب لم يتطرق إلى وصف الزيارة والحوار والقصة . وهو يشبهه فى بذل الوعود فحسب حين يقول :

فإن شئت حرمت النساء سواكم وإن شئت لم أطعم نقاخاً ولا بردا
وإن شئت غرنا بعدكم ثم لم نزل بمكة حتى تجلسى قابلاً نجدا

ومن أجمل شعره قوله فى عائشة بنت طلحة :

أنعم الله بذا الوجه عيناً وبه مرحباً وأهلاً وسهلا
حين قالت : لا تفشين حديثى يابن عمّى أقسمتَ قلت أجل لا
اتق الله واقبلى العذر منى وتجافى عن بعض ما كان زلاّ
لا تصدّى فتقتلينى ظلماً ليس قتل المحب للحبّ حلاّ

ما أكن سؤتـــكم به فلك العتـ ـبى لدينا وحق ذاك وقـــلاّ
لم أرحّب بأن سخطت ولـــكن مرحباً أن رضيت عنـــا وأهلا
إنّ شخصـــاً رأيته ليلة البـــد ر عليه انثنى الجمال وحـــلاّ
جعل الله كل أنثى فـــداء لك بل خدّهـــا لرجلك نعلا
وجهك البـــدر لو سألت به المز ن من الحسن والجمال استهلاّ

وهذه دعوى الشاعر عند كل امرأة بأن هواها قاتله وأن صدّها مجهز عليه وأنه ينتظر الرضا وإشراق وجهها فهى البدر وكل أنثى لها فداء . وكلّ ما فى هذه الأبيات من جمال هى رقة أسلوبها وسهولة معانيها . ولقد سقناها لنبرهن بُعد الرجل عن مدرسة عمر إلا فى اللحاق بالنساء ، وقد فعلها مثله كثير من الشعراء .

وثمة شاعر آخر هو أبو دهبل الجمحى ذكرت كتب الأدب أنه شاعر غزل وأنه جميل فى خلقته منصرف إلى النساء بجملته. وقد استعرضنا شعره فوجدنا فيه وجداً وشكوى وبكاء وحرقة وعهوداً يقطعها وأيماناً يقسم بها أنه مخلص وأنه وفىّ ، وهو مع ذلك ينتقل من امرأة إلى أخرى .

ولقد زعموا أن عاتكة بنت معاوية بن أبى سفيان حجّت فرآها وأحبها لأول نظرة ، وتغزل بها ثم لحقها إلى الشام فمرض فيها فقال :

طال ليـــلى وبت كالمحـــزون ومللت الثـــواء فى جيرونِ
وأطلت المقـــام بالشـــام حتى ظن أهـــلى مرجّمات الظنـــون
فبكت خشيـــة التفرق جمـــلٌ كبكاء القـــرين إثر القـــرين
وهى زهـــراء مثل لؤلؤة الغـــوا ص ميزت من جـــوهر مكنون

وإذا ما نسبتهـا لم تجـدها ... في سنـاء من المـكارم دونِ
ثم خاصرتها إلى القبـة الخضـ ... راء تمشي في مرمر مسنـونِ
ولقد قلت إذ تطاول سقمـي ... وتقلبت ليلـتي في فنـون
ليت شعرى أمن هوى طار نـومى ... أم برانى البارى قصـير الجفـون

ولا شك فى أن الذى تخيل القصة والقصيدة تصور ترف بنى أمية وجمال نسائهم ، فجعلهن كالجوهر المـكنون يمشين على مرمر مسنون فالمحبّ فى جنون وأرق مستديم .

وصاحب الأغانى يروى أن معاوية نفسه قابل الشاعر ونصحه فى مبارحة الشام وقال له : « فتيان الشعر لم يتركوا أن يقولوا النسيب فى كل من جاز أن يقولوه فيه وكل من لم يجز » .

وأغلب الظن أن الحجازيين هجوا بنى أمية فى التغزل بنسائهم ، فاخترعوا القصص والأشعار مما لا طائل وراءه ولا يمثل مدرسة ابن أبى ربيعة فى شيء .

* * *

ولم تنفرد مكة بهذا اللّهو الشعرىّ إذا جاز التعبير وإنما شاركتها فيه المدينة فقام فيها شعراء تغزلوا ووصفوا دخائل قلوبهم ودقائق عيشهم المترف ، فرسموا النساء وما كان يغشاهن من فرح وحزن وألم وسرور ، وما كان يصيب الشعراء خلال ذلك اللقاء من عاطفة وشعور . ويمثل هؤلاء جميعاً الأحوص .

والأحوص (عبد الله بن محمد) من الأوس ذو عاطفة جامحة ولسان شديد وتقلب فى الأمصار وصلة بالأمويين وخليفتهم يزيد بن عبد الملك ، وقد قالوا إنه رحل إلى دمشق وتوفى فيها .

وأجمل شعره فى صاحبته أم جعفر حيث يقول :

أبثك ما ألقى وفى النفس حاجة ... لها بين جلدى والعظام دبيبُ
لك الله إنى واصل ما وصلتنى ... ومثن بما أوليتنى ومثيبُ
وآخذ ما أعطيت عفواً وإننى ... لأزورّ عما تكرهين هيوبُ
فلا تتركى نفسى شعاعاً فإنّها ... من الحزن قد كادت عليك تذوب

وهو فى هذا الشعر لا يعدو أن يبثّها وجده وهيامه وأن يطلب الاجتماع خوفاً على نفسه أن تذهب شعاعاً وأن يموت حزناً . وهو شبيه فى ذلك بمدرسة العذريين فيصارحنا بقوله :

ثنتان لا أدنو لوصلهما ... عرس الخليل وجارة الجنبِ[1]
أما الخليل فلست فاجعه ... والجار أوصانى به ربى
عوجوا كذا نذكر لغانية ... بعض الحديث مطيكم صحبى
ونقل لها : فيم الصدود ولم ... نذنب بل أنت بدأت بالذنب
إن تقبلى نقبل وننزلكم ... منا بدار السّهل والرحبِ
أو تدبرى تكدر معيشتنا ... وتصدّعى متلائم الشعبِ

فهو على جانب كبير من الموافقة والمتابعة لا يكاد يهجم كما يفعل العرجىّ وعمر ولا يكاد يغدر ، وإنما يصرّح فى كثير من مواقفه فيقول :

قالت وقلت تحرَّجى وصلى ... حبل امرئ بوصالكم صبٌّ
واصل إذاً بعلى فقلت لها : ... الغدر شىء ليس من ضربى

وهذا خلق نبيل لم نجده عند غيره إلاّ عند العذريين — إذا صحّ أنهم وجدوا على الشكل الذى رووا — والغريب أن الرجل أحبّ نساء كثيرات

(١) الجنب : اللاصق بك إلى جانبك .

كالذلفاء وعقيلة وسلامة وغيرهن واتصل بهن فقال فى الذلفاء :

إنما الذلفــاء همّــى — فليدعنى من يلــومُ
أحسن النــاس جميعاً — حين تمشى وتقــوم
حبّب الذلفــاء عندى — منطق منهــا رخيم
أصِل الحبــل لترضى — وهى للحبــل صروم
حبها فى القلب داء — مستــكنٌّ لا يريم

وهو فى هذا شريف اللفظ رقيق الوصف عذب الكلام والوزن القافية ، ومثله قوله فى عقيلة :

يومى ويومك بالعقيق إذا الهوى — منا جميع الشمل لم يتبدَّد
لى ليلتان فليلة معســولة — ألقى الحبيب بها بنجم الأسعد
ومريحة همِّى علىَّ كأنــنى — حتى الصَّباح معلَّق بالفرقــد

أو قوله فى سلامة القسّ :

أسلام هــل لمتيم تنــويلُ — أم هل صرمت وغال ودّك غيلُ
لا تصرفى عــنى دلالك إنــه — حسنٌ لدى وإن بخلت جميل
أزعمت أن صبابتى أكذوبــة — يومــاً وأن زيارتى تعليــل

وهو شعر بسيط سهل رقيق اللفظ قريب المعنى شريف الغاية والهدف .

ومثل الأحوص كثير فى أدبنا العربىّ لا نستطيع أن نعرض لهم ، فقد وجدوا فى العصر الأموىّ ولكنهم لم يبلغوا فى الفن شأو عمر والعرجىّ ، وإنما ساروا على طريقة المخزومى والأحوص فى غزل رقيق ووصف شامل للشعور والعاطفة

دون أن يبلغوا فى جنون الهوى مبلغ العذريين ودون أن يلحقوا بأوصاف الحوار والقصة مبلغ أصحاب عمر .

* * *

فى الشام :

سمع أهل الشام بهذا الغزل الطريف الذى كان أهل الحجاز ينقلونه إلى أطراف البلاد العربية ، وطربوا له وتغنوا به ، وكانت نساؤهم كما زعم صاحب الأغانى موضع هذا الغزل فى كثير من الأحيان يسافرن إلى الحج فيرجعن بالمديح وقصائد الحب مزهوات خفرات .

فليس من الغريب أن يقول شعراء الشام فى الغزل لولا مشاغل الخلافة والحزبية والسياسة . ولكننا لم نقع على شاعر خصّ بهذا الفن وقته وجهده ، إلاّ الوليد بن يزيد .

وعلى أنّ الوليد كان ابن خليفة ووارث الخلافة فيما بعد يجب أن ينهض بالأمور الجسام والمشاغل السياسية نراه ينهض بالترف وباللهو ويتغنى بالنساء ويطرب بذكرهن كما فعل الشعراء من أهل الحجاز سواء بسواء .

وقد نقل إلينا أنه أحبّ سلمى أخت زوجته وكلف بها ولكنهم حالوا بينه وبينها فأضرموا فى قلبه نار الوجد والأسى فراح يشبب بها ، فلما تولى الخلافة خطبها وتزوجها ولكنها لم تلبث غير أربعين يوماً ماتت بعدها وخلفت فى قلبه الجزع والأسى .

والذين يقرءون الديوان لا يجدون فيه شخصية الخليفة أو الوارث للخلافة وإنما يقعون على شاعر حضرى أقرب إلى الحجازيين فى تعابيره وصوره ، كأنه عاش فيهم وأخذ عنهم واتبع أساليبهم ، لا يختلف عنهم فى اتخاذ الكأس والشرب

خلاّناً ، ويزيد عليهم فى تردده على الأديرة والكنائس والحدائق يضحك للسرور وينتشى بالطرب والغزل فيقول :

حبذا ليلتى بدير « بونّا » حيث نسقى شرابنا ونُغَنّى
كيف ما دارت الزجاجة درنا يحسب الجاهلون أنا جننا
ومررنا بنسوة عطرات وغناء وقهوة فنزلنا
وجعلنا خليفة الله « فطرو س » مجوناً والمستشار « يُحَنّا »
فأخذنا قربانهم ثم كفّر نا لصلبان ديرهم فكفرنا
واشتهرنا للناس حيث يقولو ن إذا خبّروا بما قد فعلنا

وهذا لون من المجون والغزل لم يعرفه الأدب العربىّ قبل الوليد ، وهو لون له ما بعده ، فقد تبعه فيه العباسيون من المجّان والعراقيون فى القرن الرابع الهجرىّ ومشوا على أثره فما كادوا فيه يختلفون ، والفرق بينه وبينهم أنهم مجّان خلعاء من عامة الناس وأوساطهم وأنه ابن خليفة وخليفة فيما بعد . فهم يخافون سطوة السلطان ويخشون بأس السجن وهو لا يخشى أحداً لأنه هو السلطان .

والعجيب أن ينطلق الوليد بن يزيد بهذا المجون والدّين لما يطو قرناً كاملاً على انبثاقه ومن حوله أعداؤه يريدون له الموت والقهر ، وكيف يسمع الناس رجلاً من بيت الخلافة يغنى ويشرب أصحابه من حوله :

أصبح اليوم وليد هائماً بالفتيات
عنده راح وإبر يق وكأس بالفلاة
ابعثوا خيلاً لخيل ورماة لرماة

وكيف يسمعونه يصارحهم فى عاصمة الخلافة بقوله :

شاع شعرى فى سليمى واشتهر ... ورواه الناس بادٍ وحضر
وتهادته العذارى بينها ... وتغنين به حتى اشتهر
لو رأينا لسليمى أثراً ... لسجدنا ألف ألفٍ للأثر
واتخذناها إماماً مرتضى ... ولكانت حجنا والمعتمر

فهو يهزأ بالدين وشعائره فى حجه وعمرته وصلاته وسجوده وأئمته . ويكاد العقل لا يصدق صدور هذا الشعر عن ابن خليفة فى القرن الأول الإسلامى ، فلعلّه من صنع أعداء بنى أمية وقد عرفوا فى الوليد مجوناً وخلاعة فألصقوا به ديواناً كاملاً فيه هذا الذى روينا وأفحش مما روينا .

ومهما يكن من أمر فالغزل الذى جاء فيه هو غزل مستهتر لا يدين بعاطفة أو يطير مع اللذة ويقع مع الشهوة ، فيقول :

وصفت عندى سليمى ... فاشتهى قلبى يراها
لو يرى سلمى خليلى ... لدعا سلمى إلاها
ورأى حين يراها ... رب طاسين وطه

فإذا وصف المرأة وصف عجباً :

فإذا ما ذقت فاها ... ذقت عذباً ذا غروب
خالط الراح بمسك ... خالص غير مشوب

ويقول :

أيّما واش وشى بى ... فاملئى فاهُ ترابا
ريقها فى الصبح مسك ... باشر العذب الرضابا

وإذا اجتمع إليها خرج من ذلك بقصيدة فيها وصف ما وقع :

قامت إلى بتقبيـــل تعانقـــنى ريا العظام كأنّ المسك فى فيها
ادخل فديتك لايشعر بنـــا أحـــدٌ نفسى لنفسك من داء تفديها
بتنا كذلك لا نوم على سرر من شدة الوجد تدنينى وأدنيها
حتى إذا ما بدا الخيطان قلت لهـــا حان الفراق فـــكاد الحزن يشجيها
ثم انصرفت ولم يشعـــر بنا أحدٌ والله عنى بحسن الفعـــل يجزيها

وهذا شعر أحقّ أن يقع فى العصر العباسى لشدة المجون فى الغزل ووفرة الحرية والصراحة فى العمل، ولسنا ندرى أين نضعه من المدارس التى تقدّمت، ونظن أنه شبّ عن طوق الدراسة وانفلت من قيود الحدود ، حتى ليقع فى غير العصر الأموى وإنا على الشك فيه لمقيمون . ولكننا أوردناه لنرسم رجال العصر وشعراء الغزل وقد عدّ فيهم الوليد بن يزيد فلا محيص عن تحليله ورواية شعره .

الفصل السادس

الغزل الصناعى

فى الشام والعراق :

كان الحجازيون يطربون لذكر المرأة فيقولون الشعر ويغنون عليه ، وكان أهل الشام والعراق يسمعون هذا الشعر ويطربون له كذلك . ولكن شواغل الحزبية والسياسة صرفتهم عن القول والتغزل على فحولتهم وقوة شعرهم وجمال إقليمهم وفتنة غيطانهم . وإنما قالوا تقليداً واستهلالاً فى قصائدهم ومشاركة فى الفن ليس غير ، فلم يصرفوا فيه أيامهم ولياليهم كما فعل الحجازيون ، لذلك لم تكن لهم دواوين فى الغزل تمدّ يدك إليها فتقع على صورة للمرأة وحديث معها وحوار لذيذ وقصة طريفة . وإنما يجب أن تقرأ فى تضاعيفها هذه الأبيات المختلطة فى بحور المديح والهجاء والنقائض ، يظهر عليها أثر الصنعة حيناً ويغيب فى قوالب الجزالة والفصاحة أحياناً ، وهذا هو الغزل الصناعى .

وهؤلاء الشعراء حين أنشدوا أبيات الغزل فى مطالع قصائدهم قلّدوا أسلوب الجاهلية فى السّبك وفى المعانى ؛ وهم كثر نكتفى منهم بالمثلث الأموى الأخطل فالفرزدق فجرير ، وقد اشتهرت فحولتهم فى الحزبية والسياسة .

الأخطل (غياث) عاش عمره فى نضال وسياسة وتفرغ للخمرة لعله ينسى لقبه ويستأنف جدّه ، وساقته الخمرة إلى القينات فقال :

بان الشبـــاب وربمـــا علّلته بالغانيـــات وبالشراب الأصهبِ
ولقد شربت الخمـــر فى حانوتها ولعبت بالقينات كل الملعبِ

ولكنه لا يؤمن بالنساء فيقول كغيره من شعراء الجاهلية :

وإذا مذلت يصرن عنك مسا ... يرعين عهدك ما رأينك شاهداً
برد الشباب طوين عنك ... إن الغوانى إن رأينك طاويا
ووجدت عند عداتهن ... وإذا وعدنك نائلاً أخلفنه
نسب يزيدك عندهن ... وإذا دعونك عمهن فإنه

فهن كاذبات فى هواهن لا يحببن إلاّ القوة والشباب والغنى والثراء
لا يؤمن بالقلب ولا يدين بالحب فيقول :

جعلتُ القلب دونهما حجا ... وحائمتان تبتغيان سرّى
فتبت اليوم من جهل وتا ... وصاحب صبوة صاحبت حيناً

وإذا أتيح للأخطل أن يفتتح قصائده بالغزل وصف المرأة كما ا
مريضة العيون جميلة العنق طيبة المسك كثيرة الحلى ، وجعل لها أسماء
سليمى وسعاد وأسماء وأروى . ووصف الشيب وانصراف النساء عن الش

عند المشيب وآذنت بز ... فتنكرت لما علتنىَ كبرة
والشيب أرذل هذه ا ... لما رأت بدل الشباب بكت له

ولو أراد الأخطل أن ينصرف إلى النسيب لتمكن منه لفحولة
وأسلوبه ؛ ولكنه لن يملك قلباً كقلب الغزلين ولن يتفرغ لهذا الفن ما
تقرعه ألسنة الشعراء وينبرى لمقارعتها فى الصباح وفى المساء .

وأما الفرزدق همام بن غالب فلم يكن يحسن الغزل والتشبيب بالنس
كان يشعر بجفاف العاطفة فى شعره كلّه ، وقد ساقه هذا الجفاف إلى

(١) المذل : الفوضى والضجر .

وصعوبة ، وكأنه شعر بذلك فراح يقلّد الغزلين من الجاهليين والحجازيين في العصر الأموى لعله يظفر برضا المغنين وإقبال الشباب ؛ فعمل قصائد ذكر فيها النساء وقصّ قصصهن وزيارته لهنّ ، ثم أفاض فى خيانة النساء وتقلّبهن وبعدهن عن الوفاء وكرههن للشيب :

تضاحكت أن رأت شيبــاً تَفَـزّعنى كأنهـــا أبصرت بعض الأعاجيب
من نســـوة لبنى ليث وجيـــرتهم برّحن بالعين من حسن ومن طيب[١]
فقلت إنّ الحواريـــسات معطبة إذا تفتلـــن من تحت الجلابيب[٢]

لذلك يخاف الفرزدق من النساء وينظر إليهن نظرة الجاهليين :

تزوّدَ نظـــرة لم تـــدع لـــه فؤاداً ولم تشعر بما قد تزوّدا
فلم أر مقتـــولا ولم أر قاتـــلاً بغير سلاح مثلها حين أقصدا[٣]

والشاعر يحب فيهن الشرف والراحة والغنى :

إذا شئت غنانى من العاج قاصف على معصم ريان لم يتـــخدّد[٤]
لبيضاء من أهل المدينة لم تعش ببؤس ولم تتبع حمولة مجحـــد[٥]

وهذه الأوصاف تنطبق على ما أحب أهل الجاهلية عند نسائهن ؛ وقد زاد على ذلك حبّه للشرف وبعده عن الفحش .

أحبّ من النساء وهـــنّ شتّى حديث الـــنزر والحدق الكلالا
موانع للحـــرام بغـــير فحش وتبذل ما يـــكون لها حـــلالا .

(١) برحن بالعين : أى أمرضنها ، والتبريح : العذاب .
(٢) الحواريات : نساء الأمصار لبياضهن ونعومتهن — المعطبة : الهلاك .
(٣) أقصد السهم : أصاب مقتله .
(٤) العاج : سوار من عاج .
(٥) المجحد : قليل الخير والمال .

ويلحّ فى المعنى فيرويه فى قصيدة أخرى يقول فيها :

نؤوم عن الفحشاء لا تنطق الخنا ... قليل سوى تخييلها القوم ذامُها
أفاطم ما يدريك ما فى جوانحى ... من الوجد والعين الكثير سجامُها
فلو بعتنى نفسى التى قد تركتها ... تساقط تترى لافتداها سوامها
لأعطيت منها ما احتكمت ومثله ... ولوكان ملء الأرض يجدى احتكامها
قد اقتسمت عيناك يوم لقيتنا ... حشاشة نفس ما يحلّ اقتسامُها
فكيف بمن عيناه فى مقلتيهما ... شفاء لنفس فيهما وسقامُها
إذا هى نأت عنى حننتُ وإن دنت ... فأبعدُ من بَيْض الأنوق كلامها

وفاطمة هذه جميلة العينين قويتا الفتك فقد قتلتا حشاشته وهما شافيتان لو أرادت صاحبتهما . وليس فى هذا الغزل ما يروى النفس ، وإنما هو إعادة لمعان تكررت حتى ملّها السامع ؛ فالفرزدق بعيد عن فن الغزل وهو ينحت من صخر لا يحسّ بالحب ولا يتأثر بالعاطفة .

وجرير بن عطية وحده أليف الرّقة فى غزله ، وفق فيه إلى حد بعيد ، فقد طرق معانى القدماء بألفاظ رقيقة وعبارات عذبة وموسيقا جميلة . وهو القائل :

قلبى حياتى بالحسان مكلّف ... ويحبّهن صداى فى الأصداء
إنى وجدت بهن وجد مرقش ... ما بعض حاجتهن غير عناء

ويخيل للسامع أنه عمر بن أبى ربيعة حين يقول « قلبى مكلّف بالحسان » وأنه سيرى منه زير نساء ، ولكن الواقع أنه تغزل ففشل فى كثير من حبه على حد قوله :

إنّ الغوانى قــد قطعن مــودّتى بعد الهـوى ومنعن صفو المشرب
وإذا وعــدنك نائلاً أخلفنــه وجعلن ذلك مثــل برق الخلّب

وقد مرّ بنا مثل ذلك عند الأخطل فى اللفظ والمعنى . فهل كانت النساء آنذاك مخلفات للعهد خائنات للودّ ينصرفن عن الرجال حين يقبل المحبون على الشيب :

أهذا الــود زادك كل يــوم مباعــدة لإلفــك واجتنــابا
لقد طرب الحمــام فهاج شوقاً لقلب ما يــزال بــكم مصابا
ونرهب أن نــزوركم عيونــا مصانعــة لأهــلك وارتقابــا
فمــا باليتِ ليلتنــا بنجد ودمــع العــين ينحدر انسكابا
ألا يا قلبُ ما لك إذ تصــابى وهذا الشيب قد غلب الشبابا
كما طــرد النهــار سواد ليــل فأزمــع حين حــلّ به الذهابا
سأحفظ ما زعمتِ لنــا وأرعى إياب الودّ إن لــه إيابــا

فهو كغيره يصف الحجّاب والأهل ومن يقف سدّاً أمام المحبوبة ويحول دون الزيارة ، ويصف الشاعر العيون والأسنان والخدود ، ويبكى كما يبكى غيره للهجر والفراق ، ويخاف القتل من العيون ويطلب القود من النساء ويرميهن بالخيانة . وقد رق فى بعض غزله حتى حسبنا أنه سيكون غزلاً لو انفرد للقول فى هذا الباب ، ولكنه خيّب الظن فما وقعنا على ما يروى غلتنا فى ديوانه . ونحسب أن أجمل غزله قصيدته المشهورة التى يقول فيها :

يا ليت ذا القلب لاقى من يعــلّله أو ساقياً فسقاه اليوم سلــوانا
أو ليتها لم تعلقنــا عــلاقتهــا ولم يكن داخل الحب الذى كانا
هلاّ تحــرّجت مما تفعلين بنــا يا أطيب الناس يوم الدجن أردانا

قالت ألمّ بنا إن كنت منطلقـاً ... ولا أخالك بعـد اليوم تلقانا
يا طيب هل من متاع تمتعين بـه ... ضيفاً لـكم باكراً يا طيب عجلانا
ما كنت أوّل مشتاق أخى طرب ... هاجت له غدوات البـين أحزانا
يا أم عمـرو جزاك الله مغفـرة ... ردى علىّ فـؤادى كالذى كانا
ألست أحسن من يمشى عـلى قدم ... يا أملح الناس كل الناس إنسانا
يلقى غريمـكم من غير عسرتكم ... بالبذل بخلاً وبالإحسان حرمـانا
لا تأمـنن فإنى غـير آمنـه ... غـدر الخليل إذا ما كان ألوانا
قد خنت من لم يكن يخشى خيانتكم ... ما كنت أول موثـوق به خانا
لقد كتمت الهـوى حتى تهيّمنى ... لا أستطيـع لهذا الحب كتمانا
لا بارك الله فى الدنيا إذا انقطعت ... أسباب دنياك من أسباب دنيانا
يا أم عثمان إن الحبّ عن عرض ... يصبى الحليم ويبكى العين أحيانا
ضنت بمـوردة كانت لنا شرعاً ... تشفى صدى مستهام القلب صديانا
كيف التلاقى ولا بالقيظ محضركم ... منا قريبٌ ولا مبداك مبدانـا
ما أحدث الدهر مما تعلمين لـكم ... للحبل صرماً ولا للعهد نسيانـا
أبدّل الدهر لا تسرى كواكبـه ... أم طال حتى حسبت النجم حيرانا
إن العيون التى فى طرفهـا حـور ... قتلننا ثم لم يحيـين قتـلانا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به ... وهنّ أضعف خلق الله أركانا

أوردنا كثيراً من أبيات هذه القصيدة على غير عادتنا ، ولكننا رأينا أنها تستحق أن تمثل العصر الأموى فى الشام والعراق ، فهى من رائع القول ورقيق المعانى وخفة اللفظ وعظيم موسيقاه حتى لتصلح للغناء قبل كل شىء . فهى

حوار فى أولها بينه وبينها ، ودعوة للقاء ومديح لا يتناهى ، وأمنية عذبة فى الإبقاء على العهد والاحتفاظ بالود ، فالفراق ينهى أسباب الحياة ، وينتهى الشاعر بوصف وجه المحبوبة فيصف العيون ثم الريق والأسنان . وهذه القصيدة لا تصف ما بالمحبوبة من عاطفة وما يلف رأسها من أفكار ، ولا ترسم أعضاء الجسم فى شكل مفصل ، فهى لا تلمّ بالمدرسة الحسيّة الجاهلية ولا تقع من المدرسة البدوية فى الجنون والهيام ، كما أنها لا تشبه المدرسة الحضرية فى الحوار والقصة والزيارة . وإنما هى تقليد لهذا الغزل القديم ظهر رقيقاً بديعاً مسرفاً فى السهولة والبساطة حتى ليبلغ كل قلب ويطرب كل سمع .

ولن نذهب أبعد من هذا فى استعراض الأمويين فى الشام والعراق فكلهم شبيه فى غزله بالأخطل أو بالفرزدق ، ولن تقع على شاعر أرقّ فى تقليده من جرير . وجرير مع هذا لا يبلغ شأو الحضريين أو البدويين من شعراء الحجاز كما رأينا . لذلك نرى أن الغزل وُلد فى الحجاز ولم يتحول عنه ، ففيه ارتفعت رايته وقويت مدرسته حتى كانت فى حُجَر عديدة آوت العفيف وغير العفيف ، وضّمت الصّادق والكاذب ، ولكنها كانت حقّاً مدرسة الغزل فى ألوانه جميعها .

فإذا شئت أن ترى لوناً آخر من الغزل وتسمع جانباً آخر من القول فيه فموعدنا فى القسم الثانى ، حيث ننتقل بك إلى العصر العباسى والعصور التى تليه حتى العصر الحاضر ، لترى كيف تطوّر الغزل على اختلاف عصورنا الأدبية .

فهرست

رقم الإيداع		١٩٨١/٥١٨٧
الترقيم الدولى	٩٧٧-٧٣٥١-٨٨-٧	ISBN

١/٨١/٣٣٣

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)

مجموعة
فنون الأدب العربى

لقد قصد من هذه المجموعة أن تجلو للقارئ العربى ألواناً من الفنون الأدبية التى
لجها الأدب العربى فى مختلف أقطاره وعصوره . فهى تقف أمام كل فن أدبى
الجه فى جزء أو أكثر من هذه السلسلة التى سيجتمع فيها محصول وافر من فنون
دب المختلفة التى تكون فى مجموعها ذلك الهيكل الأدبى الضخم الذى شيدته
ربية فى تاريخها الطويل . .

وفضل هذه المجموعة أنها تعالج الأدب العربى لا على طريقة السنين ، ولا على
يقة التقسيم إلى عصور كما ألفنا فى كتب التاريخ الأدبى . . . ولكنها تعالج
أدب العربى على مدى ما اتسع فيه من فنون . . . فللمقامة موضوع ، وللقصة
ضوع ، وللغزل موضوع ، وللوصف موضوع . . . وهكذا ستكبر هذه المجموعة
لى قدر ما فى الأدب العربى من فنون .

صدر منها :

- فى الفن الغنائى : الغزل (جزءان) ، الرثاء ، الوصف ، المديح ، الفخر والحماسة ، الهجاء ، الموشحات والأزجال .
- فى الفن القصصى : المقامة ، التراجم والسير ، الرحلات ، الترجمة الشخصية .
- فى الفن التمثيلى : المسرح .
- فى الفن التعليمى : النقد ، الخطب والمواعظ ، الحكم والأمثال .

تحت الطبع :

- فى الفن الغنائى : الزهد والتصوف .
- فى الفن القصصى : الملحمة ، القصة ، الحكاية والأقصوصة .
- فى الفن التمثيلى : الفاجعة والمأساة ، الملهاة .
- فى الفن التعليمى : منظومات الشعر .